جزء

٩

أسرار النفس البشرية

بقلم

سيد تقي سيد حسين الموسوي

حفظه الله

كتاب

أسرار النفس البشريّة

الجزء التاسع

(٩)

للمؤلف

سيّد تقي سيّد حسين الموسوي

حفظه الله

www.taqimusawi.com

0096899419461

صندوق البريد ٩٢٠

الرمز البريدي ١١٤

سلطنة عُمان

المصادر

- كتاب معاذلة النّفس وهو صحيفة من صحف نبيّ الله إدريس عليه السلام.
- كتاب المجالس للسيّد حسين العالم الموسوي قدّس سرّه.
- كتاب السّموات السّبع للمؤلف سيّد تقي الموسوي.
- كتاب قدوة الفقهاء والعارفين للمؤلف سيّد تقي الموسوي.
- كتاب ألف باء العرفان للمؤلف سيّد تقي الموسوي.
- كتاب الجزء الثاني من أسرار النّفس البشريّة.

المحتويات

المصادر ٦
المحتويات ٧
العرفان بالجميل ٩
المقدّمة ١٠
الجوهر الكثيف ٤٦
المتضادّات والمتباينات ٤٩
قوّة ظهور الله ٥٢
الله مخفيّ من شدّة ظهوره ٥٥
ضرورة الرّجوع إلى الله ٥٨
ولا تيأسوا من روح الله ٦١
أنت المونس لهم حيث أوحشتهم العوالم ٦٤
وحدة الوجود ٦٦
عندك الوقت لإصلاح نفسك ٧٠
عن قريب بديارهم تلتحقين ٧٣
اليقين هو العلم ٧٧
المعرفة القلبيّة الكشفيّة ٨٠
يا نفس أنت الخير الدائم الباقي ٨٤

ما هو علم اليقين ٨٨

حتى زرتم المقابر ٩٤

الفيوضات الإلهيّة ١٠١

أنوار اليقين ١٠٧

العرفان بالجميل

أنا مدين جدًّا في كتبي الأخيرة، وعلى الخصوص هذا الكتاب (أسرار النفس البشريّة)، وأيضًا كتبي السابقة (هكذا تكلّم الإمام جعفر الصادق عليه السلام) و (ورفعناه مكانًا عليًّا) و(بوذا ونور الملكوت) و(هكذا تكلّم الله على لسان داود) و (هكذا ناجى داود ربه) و (كتاب محاورتي مع الشيخ علي المياحي) و (كتاب المباني الأساسيّة للطريقة الأويسيّة) الذي أُسّس بناءً على أسئلته، ذلك للسيد محمد الشوباصي من سوريا، حيث زوّدني بالمراجع القيّمة وساعدني كثيرًا في إتمام كتبي ومراجعتها وتصميمها ونشرها إلكترونيًّا عن طريق مواقع التواصل الاجتماعي والإنترنت. فالشكر له موصول لما آثرني به من خدمات قيّمة لا أنساها، وأسأل الله العليّ القدير أن يوفّقه في حياته في هذه الدنيا وفي الآخرة إنّه سميع مجيب الدعاء.

وأيضًا أشكر زهير من دبي في الإمارات العربيّة المتحدة وجهاد من البحرين لوضع موقع إلكتروني لكتبي، ولا أعرف حقيقة كيف أشكرهما على مأثرة الإيثار التي يتحلّان بها رغم مشاغلهما الكثيرة. فقد ساعداني كثيرًا في نشر كتبي وسهّلا للقارئ العربي الوصول إلى هذه الكتب. فالشكر موصول لهما إلى الأبد وأتمنّى لهما من كلّ قلبي التوفيق في الدنيا والآخرة.

المقدّمة

يا نفسُ ! اسمعي ما يقوله إمامنا ومقتدانا أمير المؤمنين عليّ عليه السلام حينما تلا قوله تعالى[1] :

{ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ }

يَا لَهُ مَرَاماً مَا أَبْعَدَهُ، وَزَوْراً مَا أَغْفَلَهُ، وَخَطَراً مَا أَفْظَعَهُ. لَقَدِ اسْتَخْلَوْا مِنْهُمْ أَيَّ مُدَّكِرٍ، وَتَنَاوَشُوهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ. أَ فَبِمَصَارِعِ آبَائِهِمْ يَفْخَرُونَ ؟ أَمْ بِعَدِيدِ الْهَلْكَى يَتَكَاثَرُونَ ؟ يَرْتَجِعُونَ مِنْهُمْ أَجْسَاداً خَوَتْ، وَحَرَكَاتٍ سَكَنَتْ.

وَلَأَنْ يَكُونُوا عِبَراً أَحَقُّ مِنْ أَنْ يَكُونُوا مُفْتَخَراً، وَلَأَنْ يَهْبِطُوا بِهِمْ جَنَابَ ذِلَّةٍ أَجْجَى مِنْ أَنْ يَقُومُوا بِهِمْ مَقَامَ عِزَّةٍ.

لَقَدْ نَظَرُوا إِلَيْهِمْ بِأَبْصَارِ الْعَشْوَةِ، وَضَرَبُوا مِنْهُمْ فِي غَمْرَةِ جَهَالَةٍ، وَلَوِ اسْتَنْطَقُوا عَنْهُمْ عَرَصَاتِ تِلْكَ الدِّيَارِ الْخَاوِيَةِ، وَالرُّبُوعِ الْخَالِيَةِ، لَقَالَتْ: ذَهَبُوا فِي الْأَرْضِ ضُلَّالًا، وَذَهَبْتُمْ فِي أَعْقَابِهِمْ جُهَّالًا، تَطَئُونَ فِي هَامِهِمْ، وَتَسْتَنْبِتُونَ فِي أَجْسَادِهِمْ، وَتَرْتَعُونَ فِيمَا لَفَظُوا، وَتَسْكُنُونَ فِيمَا خَرَّبُوا، وَإِنَّمَا الْأَيَّامُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ بَوَاكٍ، وَنَوَائِحُ عَلَيْكُمْ.

أُولَئِكُمْ سَلَفُ غَايَتِكُمْ، وَفُرَّاطُ مَنَاهِلِكُمْ، الَّذِينَ كَانَتْ لَهُمْ مَقَاوِمُ الْعِزِّ، وَحَلَبَاتُ الْفَخْرِ، مُلُوكاً وَسُوَقاً، سَلَكُوا فِي بُطُونِ الْبَرْزَخِ سَبِيلًا، سُلِّطَتِ الْأَرْضُ عَلَيْهِمْ فِيهِ، فَأَكَلَتْ مِنْ لُحُومِهِمْ، وَشَرِبَتْ مِنْ دِمَائِهِمْ، فَأَصْبَحُوا فِي فَجَوَاتِ قُبُورِهِمْ جَماداً لَا يَنْمُونَ، وَضِمَاراً لَا يُوجَدُونَ، لَا يُفْزِعُهُمْ وُرُودُ الْأَهْوَالِ، وَلَا يَحْزُنُهُمْ تَنَكُّرُ الْأَحْوَالِ، وَلَا يَحْفِلُونَ بِالرَّوَاجِفِ، وَلَا يَأْذَنُونَ لِلْقَوَاصِفِ.

غُيَّباً لَا يُنْتَظَرُونَ، وَشُهُوداً لَا يَحْضُرُونَ، وَإِنَّمَا كَانُوا جَمِيعاً فَتَشَتَّتُوا، وَآلَافاً فَافْتَرَقُوا، وَمَا عَنْ طُولِ عَهْدِهِمْ، وَلَا بُعْدِ مَحَلِّهِمْ، عَمِيَتْ أَخْبَارُهُمْ، وَصَمَّتْ دِيَارُهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ سُقُوا كَأْساً بَدَّلَتْهُمْ بِالنُّطْقِ خَرَساً، وَبِالسَّمْعِ صَمَماً، وَبِالْحَرَكَاتِ سُكُوناً، فَكَأَنَّهُمْ فِي ارْتِجَالِ الصِّفَةِ صَرْعَى سُبَاتٍ.

---

[1] (سورة التكاثر ١ - ٢).

جِيرَانٌ لَا يَتَأَنَّسُونَ، وَأَحِبَّاءُ لَا يَتَزَاوَرُونَ، بَلِيَتْ بَيْنَهُمْ عُرَا التَّعَارُفِ، وَانْقَطَعَتْ مِنْهُمْ أَسْبَابُ الْإِخَاءِ، فَكُلُّهُمْ وَحِيدٌ وَهُمْ جَمِيعٌ، وَبِجَانِبِ الْهَجْرِ وَهُمْ أَخِلَّاءُ، لَا يَتَعَارَفُونَ لِلَيْلٍ صَبَاحاً، وَلَا لِنَهَارٍ مَسَاءً.

أَيُّ الْجَدِيدَيْنِ ظَعَنُوا فِيهِ كَانَ عَلَيْهِمْ سَرْمَداً، شَاهَدُوا مِنْ أَخْطَارِ دَارِهِمْ أَفْظَعَ مِمَّا خَافُوا، وَرَأَوْا مِنْ آيَاتِهَا أَعْظَمَ مِمَّا قَدَّرُوا، فَكِلْتَا الْغَايَتَيْنِ مُدَّتْ لَهُمْ إِلَى مَبَاءَةٍ، فَاتَتْ مَبَالِغَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ.

فَلَوْ كَانُوا يَنْطِقُونَ بِهَا لَعَيُّوا بِصِفَةِ مَا شَاهَدُوا وَمَا عَايَنُوا، وَلَئِنْ عَمِيَتْ آثَارُهُمْ وَانْقَطَعَتْ أَخْبَارُهُمْ، لَقَدْ رَجَعَتْ فِيهِمْ أَبْصَارُ الْعِبَرِ، وَسَمِعَتْ عَنْهُمْ آذَانُ الْعُقُولِ، وَتَكَلَّمُوا مِنْ غَيْرِ جِهَاتِ النُّطْقِ، فَقَالُوا: كَلَحَتِ الْوُجُوهُ النَّوَاضِرُ، وَخَوَتِ الْأَجْسَامُ النَّوَاعِمُ، وَلَبِسْنَا أَهْدَامَ الْبِلَى، وَتَكَاءَدَنَا ضِيقُ الْمَضْجَعِ، وَتَوَارَثْنَا الْوَحْشَةَ، وَتَهَكَّمَتْ عَلَيْنَا الرُّبُوعُ الصُّمُوتُ، فَانْمَحَتْ مَحَاسِنُ أَجْسَادِنَا، وَتَنَكَّرَتْ مَعَارِفُ صُوَرِنَا، وَطَالَتْ فِي مَسَاكِنِ الْوَحْشَةِ إِقَامَتُنَا، وَلَمْ نَجِدْ مِنْ كَرْبٍ فَرَجاً، وَلَا مِنْ ضِيقٍ مُتَّسَعاً.

فَلَوْ مَثَّلْتَهُمْ بِعَقْلِكَ، أَوْ كُشِفَ عَنْهُمْ مَحْجُوبُ الْغِطَاءِ لَكَ، وَقَدِ ارْتَسَخَتْ أَسْمَاعُهُمْ بِالْهَوَامِّ فَاسْتَكَّتْ، وَاكْتَحَلَتْ أَبْصَارُهُمْ بِالتُّرَابِ فَخَسَفَتْ، وَتَقَطَّعَتِ الْأَلْسِنَةُ فِي أَفْوَاهِهِمْ بَعْدَ ذَلَاقَتِهَا، وَهَمَدَتِ الْقُلُوبُ فِي صُدُورِهِمْ بَعْدَ يَقَظَتِهَا، وَعَاثَ فِي كُلِّ جَارِحَةٍ مِنْهُمْ جَدِيدُ بِلًى سَمَّجَهَا، وَسَهَّلَ طُرُقَ الْآفَةِ إِلَيْهَا، مُسْتَسْلِمَاتٍ، فَلَا أَيْدٍ تَدْفَعُ، وَلَا قُلُوبٌ تَجْزَعُ، لَرَأَيْتَ أَشْجَانَ قُلُوبٍ، وَأَقْذَاءَ عُيُونٍ، لَهُمْ فِي كُلِّ فَظَاعَةٍ صِفَةُ حَالٍ لَا تَنْتَقِلُ، وَغَمْرَةٌ لَا تَنْجَلِي.

فَكَمْ أَكَلَتِ الْأَرْضُ مِنْ عَزِيزِ جَسَدٍ، وَأَنِيقِ لَوْنٍ، كَانَ فِي الدُّنْيَا غَذِيَّ تَرَفٍ، وَرَبِيبَ شَرَفٍ، يَتَعَلَّلُ بِالسُّرُورِ فِي سَاعَةِ حُزْنِهِ، وَيَفْزَعُ إِلَى السَّلْوَةِ إِنْ مُصِيبَةٌ نَزَلَتْ بِهِ، ضَنّاً بِغَضَارَةِ عَيْشِهِ، وَشَحَاحَةً بِلَهْوِهِ وَلَعِبِهِ.

فَبَيْنَا هُوَ يَضْحَكُ إِلَى الدُّنْيَا وَتَضْحَكُ إِلَيْهِ، فِي ظِلِّ عَيْشٍ غَفُولٍ، إِذْ وَطِئَ الدَّهْرُ بِهِ حَسَكَهُ، وَنَقَضَتِ الْأَيَّامُ قُوَاهُ، وَنَظَرَتْ إِلَيْهِ الْحُتُوفُ مِنْ كَثَبٍ، فَخَالَطَهُ بَتٌّ لَا يَعْرِفُهُ، وَنِجِيٌّ هَمٍّ مَا كَانَ يَجِدُهُ، وَتَوَلَّدَتْ فِيهِ فَتَرَاتُ عِلَلٍ، آنَسَ مَا كَانَ بِصِحَّتِهِ.

فَفَزِعَ إِلَى مَا كَانَ عَوَّدَهُ الْأَطِبَّاءُ، مِنْ تَسْكِينِ الْحَارِّ بِالْقَارِّ، وَتَحْرِيكِ الْبَارِدِ بِالْحَارِّ، فَلَمْ يُطْفِئْ بِبَارِدٍ إِلَّا ثَوَّرَ حَرَارَةً، وَلَا حَرَّكَ بِحَارٍّ إِلَّا هَيَّجَ بُرُودَةً، وَلَا اعْتَدَلَ بِمُمَازِجٍ لِتِلْكَ الطَّبَائِعِ إِلَّا أَمَدَّ مِنْهَا كُلَّ ذَاتِ دَاءٍ، حَتَّى فَتَرَ مُعَلِّلُهُ، وَذَهَلَ مُمَرِّضُهُ، وَتَعَايَا أَهْلُهُ بِصِفَةِ دَائِهِ، وَخَرِسُوا عَنْ جَوَابِ السَّائِلِينَ عَنْهُ، وَتَنَازَعُوا دُونَهُ شَجِيَّ خَبَرٍ يَكْتُمُونَهُ، فَقَائِلٌ يَقُولُ هُوَ لِمَا بِهِ، وَمُمَنٍّ لَهُمْ إِيَابَ عَافِيَتِهِ، وَمُصَبِّرٌ لَهُمْ عَلَى فَقْدِهِ، يُذَكِّرُهُمْ أُسَى الْمَاضِينَ مِنْ قَبْلِهِ.

فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ عَلَى جَنَاحٍ مِنْ فِرَاقِ الدُّنْيَا، وَتَرْكِ الْأَحِبَّةِ، إِذْ عَرَضَ لَهُ عَارِضٌ مِنْ غُصَصِهِ، فَتَحَيَّرَتْ نَوَافِذُ فِطْنَتِهِ، وَيَبِسَتْ رُطُوبَةُ لِسَانِهِ. فَكَمْ مِنْ مُهِمٍّ مِنْ جَوَابِهِ عَرَفَهُ فَعَيَّ عَنْ رَدِّهِ، وَدُعَاءٍ مُؤْلِمٍ بِقَلْبِهِ سَمِعَهُ فَتَصَامَّ عَنْهُ، مِنْ كَبِيرٍ كَانَ يُعَظِّمُهُ، أَوْ صَغِيرٍ كَانَ يَرْحَمُهُ، وَإِنَّ لِلْمَوْتِ لَغَمَرَاتٍ، هِيَ أَفْظَعُ مِنْ أَنْ تُسْتَغْرَقَ بِصِفَةٍ، أَوْ تَعْتَدِلَ عَلَى عُقُولِ أَهْلِ الدُّنْيَا [1] .

يا نفسُ ! كوني كما أنت في القبر الآن، لا مؤنس لك إلّا هو، لا مخاطب لك إلّا هو، لا مضاجع لك إلّا هو، لا رفيق لك إلّا هو، لا شفيق لك إلّا هو، لا صاحب لك إلّا هو، لا خليل لك إلّا هو، لا حبيب لك إلّا هو.

يا نفسُ ! قال حبيبي رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم): << موتوا قبل أن تموتوا >>.

[1] هنا ينتهي كلام الإمام عليّ عليه السلام.

يا نفسُ ! فموتي قبل أن تموتي. كيف ؟ أن تنقطعي إلى الله، وأن ترجعي إلى وحدتك، وأن تضعي نفسك مكان الميّت، كأنك ميّتة، ثمّ تقرئي كتابك كما أمر الله تعالى حيث قال عزّ وجلّ[1] : { اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا }.

يا نفسُ ! ولأنّ الله جلّت قدرته لا ضدّ له فهو لا يُرى من كثرة ظهوره ! وهل يا ترى ترين الشّمس المضيئة في أوضاح النهار، من كثرة ظهورها، وشدّة ضوئها، وتلألؤ ضيائها، وسبحات إشراقها ! إلّا إذا نظرت إليها من منظار أسود، الذي هو ضدّ بياض ضوء الشمس، وبلج ائتلاقها، وعلانية برهانها !

يا نفسُ ! وهذه المتضادّات والمتباينات والمتعاديات والمتباعدات والمتكاثرات، بِهَا تَجَلَّى صَانِعُهَا لِلْعُقُولِ، وَبِهَا امْتَنَعَ عَنْ نَظَرِ الْعُيُونِ. لاَ يَجْرِي عَلَيْهِ السُّكُونُ وَالْحَرَكَةُ، وَكَيْفَ يَجْرِي عَلَيْهِ مَا هُوَ أَجْرَاهُ، وَيَعُودُ فِيهِ مَا هُوَ أَبْدَاهُ، وَيَحْدُثُ فِيهِ مَا هُوَ أَحْدَثَهُ ؟! إِذاً لَتَفَاوَتَتْ ذَاتُهُ، وَلَتَجَزَّأَ كُنْهُهُ، وَلاَمْتَنَعَ مِنَ الأَزَلِ مَعْنَاهُ، وَلَكَانَ لَهُ وَرَاءٌ إِذْ وُجِدَ لَهُ أَمَامٌ، وَلاَلْتَمَسَ التَّمَامَ إِذْ لَزِمَهُ النُّقْصَانُ. وَإِذاً لَقَامَتْ آيَةُ الْمَصْنُوعِ فِيهِ، وَلَتَحَوَّلَ دَلِيلاً بَعْدَ أَنْ كَانَ مَدْلُولاً عَلَيْهِ، وَخَرَجَ بِسُلْطَانِ الاْمْتِنَاعِ مِنْ أَنْ يُؤَثِّرَ فِيهِ مَا يُؤَثِّرُ فِي غَيْرِهِ[2] .

يا نفسُ ! ويقول سيّد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة: إلهي تَرَدُّدي فِي الآثارِ يُوجِبُ بُعْدَ الْمَزارِ، فَاجْمَعْني عَلَيْكَ بِخِدْمَة تُوصِلني إلَيْكَ، كَيْفَ يُسْتَدَلُّ عَلَيْكَ بِما هُوَ في وُجُودِهِ مُفتَقِرٌ إلَيْكَ، أيَكُونُ لِغَيْرِكَ مِنَ الظُّهُورِ ما لَيْسَ لَكَ حَتّى يَكُونَ هُوَ الْمُظْهِر لَكَ، مَتى غِبْتَ حَتّى تَحْتاجَ إلى دَليل يَدُلُّ عَلَيْكَ، وَمَتى بَعُدْتَ حَتّى تَكُونَ الآثارُ هِيَ الَّتي تُوصِلُ إلَيْكَ، عَمِيَتْ عَيْنٌ لا تَراكَ عَلَيْها رَقيباً، وَخَسِرَتْ صَفقَة عَبد لَمْ تَجْعَلْ لَهُ مِنْ حُبِّكَ نَصيباً.

---

[1] (سورة الإسراء ١٤).

[2] مقتبس من كلام أمير المؤمنين الإمام عليّ عليه السلام.

إلهي أمَرْتَ بِالرُّجُوعِ إلَى الآثارِ فَارْجِعْني إلَيْكَ بِكِسْوَةِ الأنْوارِ، وَهِدايَةِ الإسْتِبصارِ، حَتّى أرْجعَ إلَيْكَ مِنْها كَما دَخَلْتُ إلَيْكَ مِنْها، مَصُونَ السِّرِّ عَنِ النَّظَرِ إلَيْها، وَمَرْفُوعَ الْهِمَّةِ عَنِ الاِعْتِمادِ عَلَيْها.

يا نفسُ ! وفي مكان آخر يقول عليه السلام: أَنْتَ الَّذِي أَشْرَقْتَ الأَنْوارَ فِي قُلُوبِ أَوْلِيائِكَ حَتَّى عَرَفُوكَ وَوَحَّدُوكَ، وَأَنْتَ الَّذِي أَزَلْتَ الأَغْيارَ عَنْ قُلُوبِ أَحِبَّائِكَ حَتَّى لَمْ يُحِبُّوا سِواكَ وَلَمْ يَلْجَأُوا إِلى غَيْرِكَ، أَنْتَ المُؤْنِسُ لَهُمْ حَيْثُ أَوْحَشَتْهُمُ العَوالِمُ، وَأَنْتَ الَّذِي هَدَيْتَهُمْ حَيْثُ اسْتَبانَتْ لَهُمْ المَعالِمُ، ماذا وَجَدَ مَنْ فَقَدَكَ، وَماالَّذِي فَقَدَ مَنْ وَجَدَكَ ؟! لَقَدْ خابَ مَنْ رَضِيَ دُونَكَ بَدَلاً، وَلَقَدْ خَسِرَ مَنْ بَغى عَنْكَ مُتَحَوَّلاً.

يا نفس ! وفي مكان آخر يقول عليه السلام: إلهي اطْلُبْنِي بِرَحْمَتِكَ حَتَّى أَصِلَ إِلَيْكَ، وَاجْذُبْنِي بِمَنِّكَ حَتَّى أُقْبِلَ عَلَيْكَ، إلهي إِنَّ رَجائِي لايَنْقَطِعُ عَنْكَ وَإِنْ عَصَيْتُكَ، كَما أَنَّ خَوْفِي لايُزايِلُنِي وَإِنْ أَطَعْتُكَ، فَقَدْ دَفَعَتْنِي العَوالِمُ إِلَيْكَ، وَقَدْ أَوْقَعَنِي عِلْمِي بِكَرَمِكَ عَلَيْكَ، إلهي كَيْفَ أَخِيبُ وَأَنْتَ أَمَلِي، أَمْ كَيْفَ أُهانُ وَعَلَيْكَ مُتَّكَلِي، إلهي كَيْفَ اسْتَعِزُّ وَفِي الذِّلَّةِ أَرْكَزْتَنِي، أَمْ كَيْفَ لاأَسْتَعِزُّ وَإِلَيْكَ نَسَبْتَنِي ؟

إلهي كَيْفَ لاأَفْتَقِرُ وَأَنْتَ الَّذِي فِي الفُقَراءِ أَقَمْتَنِي، أَمْ كَيفَ أَفْتَقِرُ وَأَنْتَ الَّذِي بِجُودِكَ أَغْنَيْتَنِي، وَأَنْتَ الَّذِي لا إِلهَ غَيْرُكَ، تَعَرَّفْتَ لِكُلِّ شَيْءٍ فَما جَهِلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الَّذِي تَعَرَّفْتَ إِلَيَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ، فَرَأَيْتُكَ ظاهِرا فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ لِكُلِّ شَيْءٍ.

يامَنْ اسْتَوى بِرَحْمانِيَّتِه فَصارَ العَرْشُ غَيْبا فِي ذاتِهِ، مَحَقْتَ الآثارَ بِالآثارِ، وَمَحَوْتَ الأَغْيارَ بِمُحِيطاتِ أَفْلاكِ الأَنْوارِ، يَا مَنْ احْتَجَبَ فِي سُرادِقاتِ عَرْشِهِ عَنْ أَنْ تُدْرِكَهُ الأَبْصارُ، يامَنْ تَجَلّى بِكَمالِ بَهائِهِ، فَتَحَقَّقَتْ عَظَمَتُهُ الاِسْتِواءِ، كَيْفَ تَخْفى وَأَنْتَ الظَّاهِرُ، أَمْ كَيْفَ تَغِيبُ وَأَنْتَ الرَّقِيبُ الحاضِرُ ؟ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَالحَمْدُ للَّهِ وَحْدَهُ.

يا نفسُ ! إنّ الإرادة في الوجود أرادت أن تتجلّى في جوهر كثيف فقالت: <كن>: فكان، فتجلّت في عالم مشهود محسوس ملموس، وتجلّت في أرض مشهودة محسوسة ملموسة، وتجلّت في جماد ونبات وحيوان مشهود محسوس ملموس، وتجلّت في إنسان مشهود محسوس ملموس.

يا نفسُ ! إلّا أنّ الإرادة نفسها جوهر لطيف، غير مشهود وغير محسوس وغير ملموس، ومظاهرها وتجلّياتها جوهر كثيف، وله أعراض حالّة عدمت الاتفاق، ومن أعراضها الملازمة لها، الاختلاف والتّضادّ والتّباين والتّعادي والتّباعد والتّفرّق والتّشتّت والتّبعثر والتّكاثر.

يا نفسُ ! أراد الله أن يعرف، وهو الكنز المخفيّ، فقال في حديثه القدسي: << كنتُ كنزًا مخفيًّا فأردتُ أنْ أُعرف فخلقتُ الخلقَ لكي أعرف >>.

فخلق المتضادّات والمتباينات والمتعاديات والمتباعدات والمتكاثرات، بأعداد هائلة لا تتصوّرها العقول والألباب.

بِتَشْعِيرِهِ الْمَشَاعِرَ عُرِفَ أَنْ لَا مَشْعَرَ لَهُ، وَبِمُضَادَّتِهِ بَيْنَ الْأُمُورِ عُرِفَ أَنْ لَا ضِدَّ لَهُ، وَبِمُقَارَنَتِهِ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ عُرِفَ أَنْ لَا قَرِينَ لَهُ. ضَادَّ النُّورَ بِالظُّلْمَةِ، وَالْوُضُوحَ بِالْبُهْمَةِ، وَالْجُمُودَ بِالْبَلَلِ، وَالْحُرُورَ بِالصَّرَدِ، مُؤَلِّفٌ بَيْنَ مُتَعَادِيَاتِهَا، مُقَارِنٌ بَيْنَ مُتَبَايِنَاتِهَا، مُقَرِّبٌ بَيْنَ مُتَبَاعِدَاتِهَا، مُفَرِّقٌ بَيْنَ مُتَدَانِيَاتِهَا[1] .

يا نفسُ ! خلق الله المتضادّات كي يُعرف أن لا ضدّ له، وهل تريد أن تعرف لماذا لا يُرى الله ؟ لأنّك ترى كلّ شيء بخلفيّة مضادّة، فمثلًا ترى النّور بخلفيّة الظّلام، وترى الظّلام بخلفيّة النّور، ولو لم يكن ظلام لما عرفت النّور، ولو لم يكن نور لما عرفت الظّلام، فيا ترى كيف يعرف السّمك الماء أنّه ماء إن لم يكن قد رأى البرّ !

[1] من كلام أمير المؤمنين الإمام عليّ عليه السلام.

والبحر في عمق كيلو متر واحد ظلام دامس لا تصله الشّمس، فكيف يا تُرى تعرف الأسماك هناك الظّلام ظلامًا إذا لم يكن هناك نور !

يا نفسُ ! ومن آيات ظهور الله سبحانه وتعالى في صميم حياتنا هو الماء، لأنّه جارٍ ليل نهار في خدمتنا، إلّا أنّنا لا نعرف قدر النّعمة الإلهيّة، لأنّها مبذولة، ولو فُقدت لَعُرِفَ قدرها.

يا نفسُ ! لقد نُقل أن هارون الرّشيد ذهب إلى درويش عارف فقال له عظني، فقال له العارف: "لو أنك كنت عطشانًا، ولم يكن الماء في متناول يديك، وكنت مشرفًا على الهلاك، فبأيّ قيمة كنت مستعدًّا أن تشتري بها كأسًا من الماء يرويك من الظّمأ ؟"

فأجاب هارون الرّشيد: "أهب نصف ملكي في مقابل هذا الماء الذي يرويني من ظمأي". فقال العارف: "ولو أنك شربت ذاك الماء، وفي وقت الحاجة لم يخرج البول منك، فماذا كنت ستهب حتى تتمكّن من البول ؟". فقال هارون الرشيد: "النصف الباقي من ملكي".

فقال العارف: "**ما قدْر المُلْك الذي يُبذل لشرب الماء ودفع البول ؟**".

يا نفسُ ! إنّ الآيات الإلهيّة قد ملأت العالم بعظمتها، ولكن متى يتنبّه الإنسان إلى ذلك ومتى يؤمن بها يا ترى !

يا نفسُ ! ومن الآيات الإلهيّة في ماء المطر أنّه ينزل من السّماء إلى الأرض، وبعد ذلك ينفذ في داخل الأرض إلى جذور الأشجار، ثمّ يصعد إلى أعالي الأشجار.

يا نفسُ ! وإذا سألت العالم الطبيعي كيف ينزل الماء من الفضاء إلى الأرض ؟ فسيقول لك لأنّه جسم تجذبه جاذبيّة الأرض إليها. وإذا سألته: إذا كانت الجاذبيّة تجذبه إلى الأرض ، فكيف يصعد الماء إلى الأغصان والأوراق والأثمار ؟ فسيقول لك جاذبيّة الشّجر تجذبه إلى أعلى.

يا نفسُ ! وإذا سألته من جعل قانون الجاذبيّة، التي تجذب الماء من أعلى إلى الأرض، ومن أودع الجاذبيّة في الأشجار، التي تجذب الماء في الاتّجاه المعاكس، أي من أسفل إلى أعلى ؟ فبهت الذي كفر !!!

يا نفسُ ! اكشفي الحجاب عن عينيك، وشاهدي النّور الإلهي. إلى متى تكوني وراء الحجب ؟ وإلى متى تعبدي الأوهام ؟ إنّ الله تعالى ظاهر للعيان، وهو من شدة ظهوره مخفيّ عن العيون !!!

يا نفسُ ! إنّ الفيض الإلهي والتّجلّيات الرّبانيّة حاضرة لكلّ فرد من أفراد البشر، ولكن شهودها يستلزم تصفية الذّات، والتّوجّه صوب الآخرة، والفراغ من غير الله، وحينها تصل إليك الكمالات الوجوديّة، لأنّه جلّ اسمه ليس ممسكًا طرفة عين.

فقد وردت حكايات كثيرة عن أشخاص كانت الدّنيا نصب أعينهم، ولكن حينما تغيّرت اتّجاهاتهم، وأصبحت الآخرة نصب أعينهم، وتوجّهوا بكلّيتهم إلى الله سبحانه وتعالى، ظهرت أيادي غيبيّة لإيصالهم إلى مقصودهم.

يا نفسُ ! ومن وفرة هذه المتضادّات والاختلافات والمتباينات والمتعاديات والمتباعدات والمتكاثرات والمتشتّتات والمتفرّقات والمتبعثرات، أراد الله أن يُعرف، ثمّ أمر العارف الذي عرفه أن يُدبر عن هذه الدّنيا، بما تحمله من الاختلاف والتضادّ والتّباين والتّعادي والتّباعد والتّفرّق والتّشتّت والتّبعثر والتّكاثر، حتى يرجع إلى أصله، مصون السرّ عن النّظر إلى آثار الله، في خلق هذه المتضادات والاختلافات، ومرفوع الهمّة عن الاعتماد عليها، وعلى التّكاثر والاختلاف، والأوهام والسّراب، والتّمويه والزّخارف والزّينة ، والرّياء والنّفاق والمخادعة والكذب، وكلّ ما هو باطل.

يا نفسُ ! إنّ الله خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا [1] . لذا خلقك في هذه الدّنيا، في جوهر كثيف، والتي هي دار المتضادّات والاختلافات والمتباينات والمتعاديات والمتباعدات والمتكاثرات والمتشتّتات والمتفرّقات والمتبعثرات، من حرّ وبرد، ووجع وألم وراحة،

[1] (سورة الملك ٢).

وجوع وعطش وشبع ورواء، ولذّة ومحنة، وكبد وسعادة، واضطراب وسكينة، وقلق وطمأنينة، وفقر وغنى، ونوم ويقظة، وصدق وكذب، وأمانة وخيانة، وعفّة وفجور، ونصيحة ومخادعة، وإخلاص ورياء ونفاق، وأسود وأبيض، ونور وظلام، حيث لا استقرار للإنسان ولا قرار.

حتى إذا عرف الله من كلّ هذه المتضادّات، كدح للرجوع إلى أصله كدحًا حتى يتّصل بأصله.

كمثل والد شفيق رأى أنّ ابنه لا يتعلّم بالنّصائح وبتجارب الآخرين، فقذف به في معمعان الحياة المضطربة أمواجها، والمتلاطمة تيّارها، والمتراكمة زخّارها، تحمله على متن الرّيح العاصفة، والزّعزع القاصفة، حتى ينتبه ابنه من غفلته وسباته، ثمّ يرجع إلى صوابه، طائعًا مستسلمًا لوالده الشّفيق.

يا نفسُ ! أنت جوهر لطيف ألبسك الله الجوهر الكثيف، وقذف بك في معمعان عوالم غريبة عن لطافة جوهرك، ولله في ذلك حكمة عظيمة، ليبلوكم أيّكم أحسن عملًا. فإذا أخلدت إلى الدّنيا وكلك الله إلى الدّنيا، وإذا أخلدت إلى اللذّات وكلك الله إلى اللذّات، ولم يُرك لذّات خفيت عنك، وهي ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على بال بشر.

يا نفسُ ! هنا في هذه الدّنيا، وفي الجوهر الكثيف، تمتحن قابليّاتك، حتى يميز الخبيث من الطيّب، والحديد من الذهب. فكلكم معادن، وهنا في هذه الدّنيا، تُختبر هذه المعادن، فإمّا شقيّ وإمّا سعيد.

يا نفسُ ! والطريف في الأمر ، أنك ترين مزبلة تقرفين من منظرها ومن رائحتها الكريهة، ولكن هناك في البشر نظائر الذّباب والبعوض والحشرات الحقيرة، وهي تحبّ العيش في المزبلة، بل تتغذّى منها غذائها المقرف الكريه.

يا نفسُ ! فعلى من تشفقين يا ترى ! هذه الحشرة الحقيرة تفكّر نفسها علّامة الدهر، وتنتقدك لأنك تقرفين منها. هنا أتون الامتحانات ! هنا دار الفتون ! يقول تعالى[1] : { وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا }.

فتحرّزي يا نفسُ ! من الحشرات الحقيرة التي تتمتّع بالأغلبيّة السّاحقة في هذه الدّنيا. يقول تعالى [2] : { وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ }.

يا نفسُ ! وقد ذكرت في الجزء السّابع من كتابي أسرار النفس البشريّة فصل (الدّنيا حلبة السّباق) عن هؤلاء الذين سمّاهم أمير المؤمنين عليّ عليه السلام بـ همج رعاع أتباع كلّ ناعق يميلون مع كلّ ريح، وذكرت أنّهم هم الأكثريّة في هذه الدّنيا.

يا نفسُ ! وذكرت أن لا ييأسنّ أحد من روح الله، فإنّه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون. فربّما خرج من هؤلاء الذين نسمّيهم همج رعاع، من تاب إلى الله توبة نصوحًا، فرفعه الله إلى مقام الصّالحين.

ولطمأنة هؤلاء أكثر أورد هنا حديثين لحبيبي رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم):

الأولى: إنّ الرّجل ليعمل الزّمن الطويل بعمل أهل الجنّة ثمّ يختم له عمله بعمل أهل النار، وأن الرّجل ليعمل الزّمن الطويل بعمل أهل النّار ثمّ يختم عمله بعمل أهل الجنّة.

والثانية: إنّ الرّجل ليعمل عمل الجنّة فيما يبدو للنّاس، وهو من أهل النّار. وإنّ الرّجل ليعمل عمل النّار فيما يبدو للنّاس، وهو من أهل الجنّة.

---

[1] (سورة طه ٤٠).

[2] (سورة الأَنعام ١١٦).

يا نفسُ ! وأكبر مثالين في التّاريخ لهذين الحديثين الشّريفين هما: حرّ بن يزيد الرّياحي وعمر بن سعد، حيث الأول انتبه في اللحظة الأخيرة من سباته وترك جيش الضّلال والتّحق بجيش الهداية والخلاص، أمّا الثّاني فكان إمام المسجد طوال حياته يصلّي بالنّاس، ولكنّه في باطنه كان يحمل حبّ الدنيا، فغرّته الدّنيا وأقدم على قتل سيّد الشّهداء أبي عبد الله الحسين عليه السلام.

يا نفسُ ! تحرّزي من عالم التّكاثر، فأنت الوحيدة والدّنيا متكاثرة، وفي كأس كلّ سالك خمرة الذّكرى الأزليّة الأبديّة التي يحتسيها وحده، عندما يكون صامتًا مصغيًا إلى ذاته العميقة في وحدته. لا يستطيع أحد أن يعلن له شيئًا غير ما هو مستقرّ في فجر معرفته. إنّه في السّكينة وحدها يستطيع السّالك أن يجد الكنز في أعماق أعماقه.

يا نفسُ ! فارجعي إلى وحدتك حيث الأنس الأكبر ، فإنّك غريبة في هذا العالم.

يا نفسُ ! أما سمعت الإمام الحسين عليه السلام وهو يقول في دعاء عرفة: أَنْتَ المُؤْنِسُ لَهُمْ حَيْثُ أَوْحَشَتْهُمُ العَوالِمُ.

يا نفسُ ! احتسي خمرة الذّكرى الأزليّة الأبديّة في وحدتك، في صمت عميق، في السّكينة المطلقة، في أعماق أعماقك !

يا نفسُ ! إنّ وحدة الوجود هو عالم التّوحيد بعينه، الذي هو كلّه نور وأنس وسرور، وأنّ الظّلمة والوحشة والعذاب لا تجد إلى هذا العالم سبيلًا.

يا نفسُ ! فما هو عالم التّوحيد وعالم وحدة الوجود، الذي يتكلّم عنه والدي السيّد حسين العالم قدّس سرّه بهذه الثقة والاطمئنان ؟ فلو كنت شفّافة ونورانيّة، لقرأت صفحات كتابك الذي تحملينه في فطرتك، ولشاهدت بأنّه عالم القدس وفي حضرة الأنس، وهو العالم الذي نقرّ بألسنتنا على الدّوام بانتمائنا إليه [1] بقولنا : { إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ }.

---

[1] (سورة البقرة ١٥٦).

يا نفسُ ! ولكن الغالبيّة الضالّة، على الرّغم من قول هذا الذّكر العظيم باللسان، إلّا أنّهم لا يقرّون بهذه الحقيقة قلبيًّا ووجدانيًّا ووجوديًّا. أليسوا هم أتيه من قوم موسى، إذ أرادوا الوطن، ولكنّهم انجرفوا إلى التيه انجرافًا !!!

يا نفسُ ! فلذلك فَهُم يسخرون ويستهزؤون بوحدة الوجود الذي ننتمي إليه ، ونحن إليه راجعون، إن طوعًا أو كرهًا !!! إن طوعًا فنعيم مقيم، وإن كرهًا فعذاب عظيم. لماذا لا يقرّون ؟ لتعصّبهم الطاغي عليهم، ولوجود الحساسيّة لديهم ضدّ بعض الأسماء، فَهُم أهل الأسماء لا أهل المعاني. ومالهم به من علم ! إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ [1] !!! وإن رجعوا إليه كارهين فعذاب عظيم، وستبدي لهم الأيام بأنّ جنايتهم على أنفسهم لا على غيرهم، فعلى أهلها جنت براقش !!!

يا نفسُ ! هذا هو وحدة الوجود الذي يسخر منه كثير من أنصاف العلماء، ويسخرون من محيي الدّين بن العربي لتأكيده المطلق على هذه الحقيقة، والسّخرية لا تنبع إلّا عن جهل بما يقع في الوجود من الحقائق، التي يراها رجال الله وأصحاب البصيرة النافذة. يقول الله تعالى في سورة الصافات[2] : { بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ }.

يا نفسُ ! وأتعجب كيف يكون هذا التناقض فيهم ؟ يردّدون الحقائق القرآنيّة بلسانهم ويقولون (إنا لله وإنا إليه راجعون)، ثمّ أنّهم يستنكفون عن قول (إنا للوجود وإنّا إليه راجعون) وعن قبوله.

---

[1] (سورة النجم ٢٣).

[2] (سورة الصافات ١٢).

يا نفسُ ! لا أدري هل هم يعيشون في الألفاظ أم في المعاني ؟ بل قولي لي إذن ماذا يفهمون من قوله تعالى في سورة العنكبوت[1] { بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ } ؟

يا نفسُ ! فهل هم ينشدون الآيات البيّنات في الألفاظ والكتب ؟ ألا يدرون أنّ الآيات البيّنات هي المعاني العظيمة في صدور الذين أوتوا العلم ؟ وهل يقرّون بظلمهم إذ يجحدونها ؟

يا نفسُ ! يقول السيّد حسين العالم قدّس سرّه بأنّ أرباب الهمم من البشر لا يقرّ لهم قرار، حتى يصلوا بأنفسهم إلى وحدة الوجود، وكلّ وجودهم في سعي حثيث للوصول إليها في همّة وإصرار. ويضيف بأنّ عالم وحدة الوجود عالم تتجرّد فيه كلّ الأشياء عن قوقعة النّفس، وتصبح الله الأحد، فهناك لا (أنا).

يا نفسُ ! وإذا أردت أن تفهمي ما يعنيه السيّد، فاخرجي من قوقعة النّفس، تنحلّ لك كلّ المشاكل. فإنّك أسيرة هذه القوقعة ويا للأسف ! فافطمي النّفس وإلّا شبّت كالطفل على حبّ الرّضاع، وعلى حبّ القوقعات !!!

يا نفسُ ! فكلّ سالك يتمنّى أن يصل إلى وحدة الوجود، لأنّ الوجود هو موطنه الذي افتقده، فهو ينشده بكلّ قوّة، وفي همّة وإصرار. فهم يعشقون أن يفنوا في عالم التّوحيد فناءً محضًا، يذوب فيه (الأنا) بكلّ صوره التي لا تعدّ ولا تحصى، وهذا هو حقيقة التّوحيد، وغيره إمّا شرك جليّ أو شرك خفيّ، الذي هو أخفى من دبيب النمل على الصّفا في الليلة الظّلماء، كما يقول الرّسول الأعظم محمّد (صلّى الله عليه وآله وسلّم): <<الشِّرْكُ فِي أمتي أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّملة عَلَى الصَّفَا فِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ>>.

---

[1] (سورة العنكبوت ٤٩).

يا نفسُ ! من كتاب بحر المعارف ما معناه إجمالًا، أنّ البشر كانوا في بدايتهم في وحدة الوجود، وهو عالم التّوحيد الذي كلّه نور وأنس وسرور، وأنّ الظّلمة والوحشة والعذاب لا تجد إلى هذا العالم سبيلًا، وأنّ أرباب الهمم من البشر لا يقرّ لهم قرار، حتى يصلوا بأنفسهم إلى وحدة الوجود، وكلّ وجودهم في سعي حثيث للوصول إليها في همّة وإصرار، ولسان حالهم يقول:

إمّـــا اللقـــاء ووصـــله في رأسي إمّا فداء الرّأس في سكري وأنســي

يا نفسُ ! وعالم وحدة الوجود عالم تتجرّد فيه كلّ الأشياء عن قوقعة النّفس، وتصبح الله الأحد ، فهناك لا (أنا).

يا نفسُ ! في هذه الحالة راجعي نفسك مليًّا، وقولي: { ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ[1] }، كما يقوله المحتضر، لكنّه يتلقّى الجواب المجلجل: { كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ }[2] .

يا نفسُ ! ولكن أجلك لم يصل بعد، وعندك الوقت الكافي لإصلاح ما فاتتك من الفرص الذّهبيّة. فاعلمي يا نفسُ ! إنّك الجوهر اللطيف، وأنّ أعراض الجوهر الكثيف قد غرّتك، بحيث ظننت أنّ السّراب هو الماء، فجريت وراءه كما تجري الهيمى في الصّحراء.

يا نفسُ ! عندك الفرصة الكافية كي تنتزعي نفسك من الشّحّ. فقد قال الله تعالى[3] : {وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}. فسابقي وسارعي إلى الخيرات في الضّعفاء، كي تغسلي الأحزان عن أرواحهم، كي تشبعي الأمعاء الغرثى، كي تشفي الغليل من غلّته، كي تروي أكبادهم الحرّى، كي

---

[1] (سورة المؤمنون ٩٩ - ١٠٠).

[2] (سورة المؤمنون ١٠٠).

[3] (سورة الحشر ٩)، (سورة التغابن ١٦).

ترحمي المسكين وابن السبيل، كي تغفري العثرات والكبوات، كي تعفي عمّن ظلمك، كي تحلمي عمّن أغلظ وأساء لك في القول، كي تصلي من قطعك، كي تحسني إلى من أساء إليك.

يا نفسُ ! سارعي إلى الخيرات كي تستحقّي الجنّات، والهي عن الشّهوات واللذّات، وترقّبي الموت في كلّ حين، وازهدي في الدّنيا.

يا نفسُ ! ارجعي إلى وحدتك واخرجي من عالم التّكاثر، بكلّ ما فيه من الاختلاف والتّضادّ والتّباين والتّعادي والتّباعد والتّفرّق والتّشتّت والتّبعثر، وبكلّ ما فيه من الكذب والمخادعة والرّياء والنّفاق والزّخارف والزّبرج والزّينة والتّمويه، وبكلّ ما يشدّك إلى هذه الدّنيا الحقيرة، التي تلهيك عن قيم السّماء.

يا نفسُ ! قبور الموتى تزورين، وأنت في سكرة الغفلة ترتعين ! أما ترين أنّهم أخلوا مكانهم في الدّنيا، فلا أمل لرجوعهم، ولا مكان لهم بين الأحياء، ولم يخلّفوا لك يا نفس إلّا درسًا وموعظة وعبرة للمعتبرين، فأنت من اللاحقين، وهم من السّابقين، عن قريب بديارهم تلتحقين، وفي اللحود الضيّقة تنامين، وفي خرابات القبور تسكنين.

يا نفسُ ! يا ترى كيف تغفلين، وأنت على رؤوسهم تطئين، وعلى أجسادهم تقفين، وفيما تركوا ترتعين، وفي خراباتهم تسكنين ! وهم أبدان خوت، وحركات سكنت، وأجساد بليت، وعظام نخرت، ولحوم أكلت، ودماء شربت، كانوا جميعًا فتشتّتوا، وآلافًا فافترقوا، عميت أخبارهم، وصمتت ضجيج ديارهم، وأخرس نطقهم، وصمّت آذانهم، وكلحت وجوههم النّواضر، وخوت أجسامهم النّواعم، ولبسوا لباس البلى.

يا نفسُ ! موتاكم أن يكونوا عِبرًا أحقّ من أن يكونوا مفتخرًا، يا نفسُ ! لقد نظر الغافلون إلى موتاهم بأبصار الرّمد، وذهبوا منهم في بحر الجهالة. يا نفسُ ! استنطقي عنهم عرَصات تلك الدّيار الخاوية والرّبوع الخالية !

يا نفسُ ! هم سبقوكم إلى الموت الذي هو غايتكم، كانت لهم مقامات العزّ، وحلبات الفخر، وهم الآن غيّاب لا يرجعون، هم غيّب لا ينتظرون، وشهود لا يحضرون، سقوا كأسًا بدّلتهم بالنّطق خرسًا، وبالسّمع صممًا، وبالحركات سكونًا، فكأنهم صرعى سُبات.

يا نفسُ ! موتاكم جيران لا يتأنّسون، وأحبّاء لا يتزاورون، بليت بينهم عُرَا التّعارف، وانقطعت منهم أسباب الإخاء ، فكلهم وحيدٌ وهُمْ جميعٌ ، مدّت الآجال لهم حتى يصلوا إلى عذاب أليم أو نعيم مقيم، حسب ما اختاروا من طريقهم في الحياة الدّنيا، بمحض اختيارهم.

يا نفسُ ! موتاكم ضيّقت عليهم لحودهم، وتوارثهم الوحشة، فانمحت محاسن أجسادهم، وقبّحت صورهم، وطالت في مساكن الوحشة إقامتهم، ولم يجدوا من الكرب فرجًا، ولا من الضّيق متّسعًا.

يا نفسُ ! لو كشف لك عنهم محجوب الغطاء ! وقد أكلت أسماعهم بالهوامّ، فأصابها الصّمم، واكتحلت أبصارهم بالتّراب حتى خسفت، وتقطّعت الألسنة في أفواههم بعد ذلاقتها، وعاث في كلّ جارحة منهم بِلًى قبّحها، مستسلمين، فلا أيدٍ تدفع، ولا قلوب تجزع، ما أفظع أشجان القلوب ! وما أكثر أقذاء العيون !

يا نفسُ ! كم أكلت الأرض من عزيزِ جسدٍ، وأنيقِ لونٍ، غذيَّ ترفٍ، وربيبَ شرفٍ ! ذهبت غضارة عيشهم، ولهوهم ولعبهم، كانوا في ظلّ عيش غفول، ففارقوها رغمًا عنهم.

يا نفسُ ! إذا أنت فهمت واستوعبت حالك بعد الموت، وطبّقت هذه العبر على نفسك في هذه الحياة قبل الموت، فأنت تمارسين الموت قبل الموت، كما قال حبيبي رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم): <موتوا قبل أن تموتوا>>.

يا نفسُ ! يؤكّد الله تعالى في سورة التّكاثر مرّتين قائلًا[1] : { كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ }، مؤكّدًا جلّ من قائل بأنّ أبواب العلم سوف تفتّح لك. لأنّ العلم يا نفسُ ! نورٌ يقذفه الله في قلب من يشاء، كما قال سيّدنا محمّد (صلّى الله عليه وآله وسلّم)، فإذا متّ عن جوهرك الكثيف، بدت لك أنوار جوهرك اللطيف، فلقد قال الله عز وجل[2] : { اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ }.

يا نفسُ ! فإذا تخطّيت عالم الظّلام دخلت عالم النّور، لأنّ الجوهر الكثيف عالم الظّلام، والجوهر اللطيف عالم النّور. إنّ ما يحدث في باطن السّالك في بداية الطريق، هو ما أسمّيه بأنوار اليقين، تشرق في قلب العبد، فيشتاق إلى طريقة السّير والسّلوك، والتحرّر من قفصه الذّهبي في الدّنيا. ويجذبه حبّ الله إلى تغيير نمطه في التّفكير، بحيث تؤثّر كثيرًا على نمط الحياة التي يعيشها. يقول الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة: << أَنْتَ الَّذِي أَشْرَقْتَ الأَنْوارَ فِي قُلُوبِ أَوْلِيائِكَ حَتَّى عَرَفُوكَ وَوَحَّدُوكَ >>.

يا نفسُ ! إذا دخلت إلى عالم النّور، أراك الله ملكوت السموات والأرض، كي تصلي إلى مرتبة علم اليقين، كما حصل لأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى[3] : { وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ }.

لأنّ علم اليقين ليس علمًا مكتسبًا، بل إنّه علم يحصل للسّالك خارج عالم المحسوسات، وهو نور إلهيّ يبزغ في قلب السّالك، من نوع العلم الذي ذكره الرّسول الأكرم (صلّى الله عليه وآله وسلّم): << العلم نورٌ يقذفه الله في قلب من يشاء >>.

---

[1] (سورة التكاثر ٣ - ٤).

[2] (سورة النور ٣٥).

[3] (سورة الأنعام ٧٥).

يا نفسُ ! وبعد ذلك يصل السّالك إلى مرتبة عين اليقين، حين يتطوّر عنده علم اليقين إلى رؤية الجحيم، حيث يقول الله تعالى في نفس سورة التّكاثر[1] : { كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ }.

يا نفسُ ! لقد اقتطفت مثالًا واحدًا من كتاب المجالس لوالدي السيّد حسين العالم قدّس سرّه، والذي ذكرت التفاصيل الكثيرة منها في كتابي (قدوة الفقهاء والعارفين) وفي كتابي (الجزء الثاني من أسرار النفس البشريّة) كالتالي:-

ولذلك فلغرض التّفهيم وتقريب المعنى، أضرب لك مثالًا الذي ضربه الله تعالى لليقين، إذ استعمل مثال النّار والنّور الظّاهري، أضربه لك حتى تفهم كيف أنّ مراتب معرفة النّور الحقيقي هي أيضًا كذلك.

ففي سورة التّكاثر ذكر الله تعالى أولًا المرتبة الأولى[2] : { كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ }، ثمّ أشار إلى المرتبة الثانية[3] : { ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ }، وأشار إلى المرتبة الثالثة في سورة الواقعة[4] : { إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ }.

فالنّاس على قسمين بعضهم لا يتيقّنون بالنّار، والبعض الآخر يعرفون بأنّ النّار جسم لطيف وخفيف. فإذا أصابت النّار أيّ شيء غلبته، وجعلته متّصفًا بصفاتها. فمثلًا لو أصابت الحديد البارد، لجعلته حارًّا حتى يظهر أثر النّار عليه، وإذا أصابت الخشب، غلبته وحوّلته إلى رماد. وإذا اشتعل بها الفانوس تنوّر بنورها، فلا تنقص النّار بسبب إنارة الفانوس.

---

[1] (سورة التكاثر ٥ - ٧).

[2] (سورة التكاثر ٥ - ٦)

[3] (سورة التكاثر ٧).

[4] (سورة الواقعة ٩٥).

ويعرفون بأنّ النّار تحلّ محلّ الأنوار العلويّة في الظّلمات، وأنّ قليلًا منها لو ظهرت في محفل تحفّه الظّلمات، لجعلت أهل المحفل مسرورين بنورها، ولو أنّها ظهرت حين يبرد الهواء، لجعلت مجاوريها مسرورين بحرارتها.

فالذي عنده علم بالنّار التي تتّصف بهذه الصّفات على قسمين: فبعضهم يقبل بها قبولًا تقليديًّا صرفًا، فهو الذي عنده إيمان قلبي تقليدي. والبعض الآخر يصدّق بالكشف القلبيّ بوجودها، وبأنّها متّصفة بهذه الصّفات، فهو الذي عنده إيمان قلبي كشفي.

وهو على ثلاثة أقسام: فالبعض يرى من بعيد أثرًا من النّار يعني الدّخان، الذي يدلّ على وجود النّار، فيستنبط وجود المؤثّر بسبب هذا الأثر، فهو الذي يحصل عنده **علم اليقين**. والقسم الآخر تنكشف عن عينيه الحجب، ويقترب إلى النّار، ويراها رأي العين، فهو الذي ارتقى إلى مرتبة **عين اليقين**. والقسم الثالث هو الذي وقع في النّار واحترق بها، وعانى حرارتها (سل عن النّار جسم من عاناها)، ثمّ أصبح فانيًا فيها، فهو الذي ارتقى إلى مقام **حقّ اليقين**.

يا نفسُ ! يجب على كلّ إنسان عاقل أن يعلم ويفهم **بأنّ العلّة الغائية للخلقة هو معرفة الله، وأنّ المعرفة لا تكتمل إلّا بالمعرفة القلبيّة الكشفيّة**، وهي ثلاثة مراتب، أعلاها مرتبة حقّ اليقين. فيجب على الإنسان المجاهدة والمناجاة والعبادة، لعل الله يوصله إلى هذه المرتبة.

يا نفسُ ! يجب أن تناجي ربّك في ظلمة الليالي قائلة: << يا ربِّ يا ربِّ يا ربِّ لا أكاد أنام في ظلمات الليل، إنني أعشق عبادتك، لأنّ حبّك قد فعل بي هذا، حتى استوحشت من غيرك، واستأنست بك وحدك >>.

ولقد كرّر الله تعالى قوله [1] (كلا سوف تعلمون) مرتين، للتأكيد على تحصيل المعرفة الحقّة تحت أستاذ حكيم، أو وليّ مرشد. وبعد ذلك يحصل علم اليقين، ومن بعده عين اليقين، ومن ثمّ حقّ اليقين.

يا نفسُ ! ارجعي إلى وحدتك، ترين السّكينة هناك في آخر المطاف، وفي بطن السّكينة ترين الكنوز. فإنّ الكنوز في بطن السّكينة. فإن رجعت إلى وحدتك ترين في داخل وجودك اختلافات كثيرة، هي من مخلّفات الماضي، التي تتعلّق بدار الدّنيا، دار الاختلافات والمتضادّات والمتباينات والمتعاديات والمتباعدات والمتكاثرات والمتشتّتات والمتفرّقات والمتبعثرات.

يا نفسُ ! أنت غريبة عنها، فأنت الجوهر اللطيف، وهذه المتضادّات هي الأعراض الحالّة في جوهرك الكثيف التي عدمت الاتفاق. فابدئي جهادك الأكبر بالذّكر المستديم الهدّاف، حتى ينقشع الاختلاف والتشتّت والتفرّق رويدًا رويدًا ، وحتى تصلي إلى أصلك، وهو النفس المطمئنّة والسّكينة والسّعادة، حيث يعمّ الاتّفاق ويخبت الاختلاف.

يا نفسُ ! إنّ المخادعة والكذب هي من مخلّفات حبّ الدّنيا، حيث أنّك تقتنين خصلة المخادعة والكذب، كي تجمعي مقتنيات الدّنيا. فإنّ استئصال هذه الخصال يتطلّب إعراضك وتجافيك عن حب الدّنيا ودار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود.

فلا يبقى فيك إلّا الإخلاص والنّصيحة، ولا ترين حقيقة ومصداقية لوجود الاختلافات والتشتّت والتبعثر هناك.

يا نفسّ ! إنّ الاختلافات والمتضادّات والمتباينات والمتعاديات والمتباعدات والمتكاثرات والمتشتّتات والمتفرّقات والمتبعثرات، ما هي إلّا صدى لأفكارك المعوجّة، وما أكثرها ! هي التي تريك السّراب كواقع، والأوهام كحقيقة، وهي التي تفتّتك من الدّاخل، وتقطّع أوصال شخصيّتك

[1] { كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ } (سورة التكاثر ٣ - ٤).

إربًا إربًا. وكلّ هذا يؤدّي بك إلى وديان الهلاكة والضّلالة، وإلى التّيه في الصّحاري والقفار، حيث لا تدرين ما دهاك، بل تظلّين تائهة هكذا في الضّلال.

يا نفسُ ! فأول شيء يجب فعله هو السّيطرة على أفكارك، فإنّ الله تعالى قد خلق عقل المعاش كي تخدمي به مشاغل الدّنيا، فإذا انتهيت من مشغلة ما، فاعلمي أنّ هذه المشغلة لها استمراريّة في أفكارك، وتأخذين بها مشاغلك الدّنيوية إلى محرابك عند الصّلاة. فاحذري من أفكارك، وتعلّمي كيف تسيطرين عليها.

يا نفسُ ! مارسي التّمارين البسيطة التي أعلّمك إياها، كي تنمو عندك موهبة السّيطرة على أفكارك، وتكوني مالكة لأفكارك لا مملوكة لأفكارك.

يا نفسُ ! فإذا تمكّنت من أفكارك، ظهرت عندك بوادر العقل الرّوحاني، الذي يطلّ على مملكة الخلود وهو مملكة الملكوت، ويفتح الله عليك خزائنه التي لا نهاية لها ولا زوال لها، ويفتح عليك الحكمة الإلهيّة، التي تلمّ بعوالم النّاسوت والملكوت والجبروت واللاهوت.

يا نفسُ ! فإذا رجعت إلى وحدتك، وخرجت من عالم التّكاثر، ورجعت إلى سكينتك، وخرجت من عالم التّشتّت والتّبعثر، ورجعت إلى عالم الإخلاص والنّصح، وخرجت من عالم الكذب والخداع والنّفاق والرّياء، رأيت أنّك الحقّ الموجود، وأنّ الأعراض الحالّة في الجوهر الكثيف لا حقيقة لوجودها، ورأيت أنّك الخير الدّائم الباقي، وأنّها محض زخارف وتمويه مستحيل فان.

فأعرضي يا نفسُ ! عنها، وارجعي إلى جوهرك الرّبّاني، واحذري من استعبادها إياك، وقطعها لك، وخذلانها بك. فإنّ عرض الدّنيا يميل إلى استعباد الإنسان الخاسر وقطعه والخذلان به.

فلا تخرجي يا نفسُ ! عن ذاتك الوحيدة الحقّيّة الشّريفة، فهي فطرة الحقّ التي فطرت عليها، واعملي أيّ شيء للبقاء فيها، فإنّها الحقّ الموجود، والخير الدّائم الباقي، وإنّها النّفس المطمئنّة،

والسّكينة الخالدة، التي ليس فيها الاختلافات والمتضادّات والمتباينات والمتعاديات والمتباعدات والمتكاثرات والمتشتّتات والمتفرّقات.

بل كلّها ألفة وقرب وزلفى وإخلاص وتفاني وأثرة وحبّ ومودّة وعشق، لا شوائب فيها، ولا زخارف، ولا تمويه، ولا اختلاف، ولا تكاثر، ولا مخادعة، ولا رياء، ولا نفاق، ولا وهم يبعدك عن الواقع، ولا باطل يشغلك عن الحقّ.

يا نفسُ ! الفرق بين علم اليقين والفلسفة الإلهيّة هو الفرق ما بين السّماء والأرض. فعلم اليقين نور يقذفه الله في قلب من يشاء، كما في الحديث النبوي الشريف: << العلم نورٌ يقذفه الله في قلب من يشاء >>، فلذلك فعلم اليقين ينتمي إلى السّماء.

في حين أنّ الفلسفة - بشعبتيها الإلهيّة والماديّة - اختراع بشريّ صرف، وهو من إفرازات المخّ، التي تستمدّ قوّتها من المحسوسات والحواس الخمس، فلذلك فعلم الفلسفة ينتمي إلى الأرض.

يا نفسُ ! إنّه من الأهميّة بمكان، أن نضع الخط الفاصل بين علم اليقين، من ناحية، وبين علم الفلسفة وإفرازات المخّ البشري والعلوم المعقولة والمنقولة، من ناحية أخرى، بحيث لا يحدث خلط عشوائي. ولا يظنّ القارئ المثقف خطأ، أنّه بمحض القراءات في الكتب أو السّماع من الخطباء على المنابر، يمكن الوصول إلى ما ذكره السيّد حسين العالم قدّس سرّه من علم اليقين، ومن ثمّ الوصول إلى هذه المرتبة من الإيمان، التي هي أكمل وأعلى مراتب الإيمان، ألا وهو الإيمان القلبيّ الشّهوديّ.

يا نفسُ ! إنّه من الأهميّة بمكان، أن نذكر هذه الحقيقة، بأنّ مرحلة ما قبل اليقين من الاستدلالات الذّهنيّة والبراهين الفكريّة من علم الفلسفة، التي تشوبها الشّكوك والرّيب، لا تقاس ولا تقارن البتّة بمرحلة ما بعد اليقين، من نوع الاستدلالات والبراهين، التي ذكرها السيّد حسين العالم قدّس سرّه، والتي تتميّز بالاعتقاد الثّابت الجازم بالأمور الغيبيّة الواقعة، ولا يتزعزع أصحابها

عن إيمانهم قيد أنملة، ولو سلّطت عليهم آلاف السّيوف، ولا يمكن للظّلمة أن تغشاهم لأنّ قلوبهم تنوّرت بالنّور الإلهي.

يا نفسُ ! فَهُم الذين نظروا إلى الأرض وإلى البحار وإلى نجوم السّماء وإلى المخلوقات الأخرى، فتعلّموا منها درسهم العظيم، وأمعنوا نظرهم فيها، وتفكّروا في الآثار الإلهيّة، **فأزيحت حجب الظّلمة دفعة واحدة عن قلوبهم**، وحصل لهم اليقين بالمبدأ الواحد الأحد الصّمد، اليقين الذي لا يتزعزع بفعل تيّارات الرّياح المخالفة. فأين الثّرى وأين الثّريا !!!

يا نفسُ ! فمرتبة علم اليقين الذي يتكلّم عنها السيّد حسين العالم قدّس سرّه لا علاقة لها بالفلسفة واستنباطاتها، والعلوم البشريّة واجتهاداتها، المنقولة منها والمعقولة، وإفرازات المخّ التي تستمدّ قوتها من حواس الإنسان الخمس. لأنّ علم اليقين ليس علمًا مكتسبًا، بل إنّه علم يحصل للسّالك خارج عالم المحسوسات، وهو نور إلهي يبزغ في قلب السّالك، من نوع العلم الذي ذكره الرّسول الأكرم (صلّى الله عليه وآله وسلّم): << العلم نورٌ يقذفه الله في قلب من يشاء >>.

يا نفسُ ! أمّا الفلسفة بشعبتيها الإلهيّة والماديّة فهي لا علاقة لها بأمور اليقين، ولا بمرتبة علم اليقين، وكيف ذلك في حين أنّ علم اليقين هو نور يقذفه الله في قلب من يشاء. أمّا الفلسفة فهي اختراع بشريّ صرف، يستلهم أصحابها العلم من عالم المحسوسات، أو يعتقد أصحابها بإصالة الأفكار، التي هي من إفرازات الخلايا المخيّة، وتفاعلاتها الكهربائيّة والمغناطيسيّة والكيماويّة.

يا نفسُ ! يليق بنا أن نذكر في هذا المقام تجربة النبي إبراهيم عليه السلام، وتحقيقاته واستدلالاته، وتفكّراته في النّجوم التي تزيّن السّماء الدّنيا، وفي بزوغ القمر والشّمس ثمّ أفولهما، كمثال حيّ على ما ذكره السيّد حسين العالم قدّس سرّه عن مرتبة علم اليقين، الذي يتأتّى بترتيب المقدّمات والاستدلالات، وبالتّفكّر في الآثار الإلهيّة.

يا نفسُ ! من الواضح أنّ هذه الاستدلالات الملكوتيّة تيسّرت لإبراهيم عليه السلام، لأنّ الله أراد أن يريه ملكوت السّماوات والأرض، **وليكون من الموقنين**[1] . فحصل له نور اليقين، وحصل له التّوجّه الكلي إلى الله، ووجّه وجهه إلى الذي فطر السّماوات والأرض، الذي هو يبقى ويفنى كلّ شيء.

يا نفسُ ! والله أعلم حيث يجعل رسالته، والله أعلم بالنّفوس، فيختار لنفسه أزكاها وأخلصها وأكثرها استعدادًا للنّور والهداية. ثمّ ينظر في النّفوس الأخرى، فلا يرى تزكية ولا إخلاصًا ولا استعدادًا للنّور والهداية، ولا حتى نيّة من هذا النوع.

يقول الرّسول الأكرم محمّد (صلّى الله عليه وآله وسلّم): << لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه >>.

يا نفسُ ! فمثل هذه النّفوس تتوق إلى الدّنيا، وهي محشورة في أنانيتها وإثبات أعلميّتها، ولا تريد أن تتخلّص من العجْب والكبر، فيتركها الله إلى ما هاجرت إليه، فتنشغل بالفلسفات التي لا تؤدّي بها إلى اليقين، ولا إلى الإيمان القلبي الشّهودي، ولا إلى الوصول إلى ربّ العالمين، بل تزيد النّفوس ظلمة إلى ظلمة، وتنزلها من أحسن تقويم إلى أسفل سافلين أكثر فأكثر.

يا نفسُ ! فالمطلوب من الإنسان أن يخرج نيّته من دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها، وأن يضع النّية كلّها في حبّ الله وحبّ الوصول إليه، وحبّ الرّسول الأكرم (صلّى الله عليه وآله وسلّم) والأئمّة الأطهار عليهم السّلام، والاقتداء بهم، وحذوهم حذو النعل بالنعل، وحبّ أحباب الله وأوليائه ومصاحبتهم. فلا يتردّد في ذلك، ولا يقدّم رجلًا ويؤخّر أخرى !!!

---

[1] { وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ } (سورة الأَنعام ٧٥).

يا نفسُ ! أما ترين الحسين عليه السلام يناجي ربّه: إلهي أَمَرْتَ بِالرُّجُوعِ إِلَى الآثارِ فَارْجِعْني إِلَيْكَ بِكِسْوَةِ الأَنْوارِ، وَهِدايَةِ الاِسْتِبصارِ، حَتّى أَرْجعَ إِلَيْكَ مِنْها كَما دَخَلْتُ إِلَيْكَ مِنْها، مَصُونَ السِّرِّ عَنِ النَّظَرِ إِلَيْها، وَمَرْفُوعَ الْهِمَّةِ عَنِ الاِعْتِمادِ عَلَيْها ؟

يا نفسُ ! هو عليه السلام يهدف من البداية إلى الوصول إليه سبحانه فقط وفقط، مصون السّرّ عن النّظر إلى الآثار، ومرفوع الهمّة عن الاعتماد على الآثار. وهو يهدف إلى كسوة الأنوار وهداية الاستبصار، تمامًا كجدّه إبراهيم عليه السلام، لا الضّياع في الاستدلالات الذّهنيّة والبراهين الفكريّة. وحاشاه من ذلك ! فإنّها أضيع من سراج في شمس !!!

يا نفسُ ! فاجعلي هدفك لقاء الله وحده، واجعليه نصب عينيك، ولا تنسي ذلك أبدًا، ثمّ انظري ماذا يسّر الله لك، إنّ يسّر لك الاستدلالات والبراهين حتى تصلي إلى المؤثر عن طريق الأثر، فليكن ذلك، ولكن لا تنسي أن تلحفيه بالسّؤال بأن يعجّل لك الوصول إليه فقط وفقط، وأن تظهري الاستقامة في طلبك، والإرادة في التّعجيل للقائه، والإدبار عن دار الغرور، والإقبال على دار الخلود.

يقال أنّ الفيلسوف الشّهير ملا صدرا الشّيرازي الذي أمضى ثلاثين سنة في تأليف فلسفته الإلهيّة، حينما اقترب من سكرات الموت، تفوّه بهذه الكلمة المشهورة:-

يا ليتني فهمت حقّ الفهم هذه الآية الصّغيرة من القرآن الكريم[1] : { قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا }، وأمضيت في العمل بها عمري، بدل أن أضيّع ثلاثين سنة من عمري في متاهات الفلسفة !!!

إِذَا قَالَـــتْ حـــذَامِ فَصَـــدِّقُوهَا فَـإِنَّ القَـولَ مَـا قَالَـتْ حَـذَامِ

[1] (سورة الشمس ٩).

فاعتبري يا نفسُ ! فانظري ماذا تكون كلمتك الأخيرة عند اقتراب الموت، صدقًا وإنصافًا أمام الله، لا نفاقًا ورياءً أمام النّاس ؟ أتكون < فزتُ وربُّ الكعبة > ؟ أو < ارجعوني لعلّي أعمل صالحًا فيما تركت [1] > ؟

يا نفسُ ! إنّ الفيض الإلهي والتّجليات الرّبانيّة حاضرة لكلّ فرد من أفراد البشر، ولكن شهودها يستلزم تصفية الذّات، والتّوجّه صوب الآخرة، والفراغ من غير الله، وحينها تصل إليك الكمالات الوجوديّة، لأنّه جلّ اسمه ليس ممسكًا طرفة عين.

يا نفسُ ! إذا تدبّرت مليًّا فيما يقوله والدي السيّد حسين العالم الموسوي قدّس سرّه، من أن الفيض الإلهي والتّجلّيات الرّبّانيّة حاضرة لكلّ فرد من أفراد البشر، تعرفين على التّحقيق، بأنّ هذه الفتوحات ميسّرة لكلّ أفراد البشر، لا الأنبياء وحدهم، ولا محمّد (صلّى الله عليه وآله وسلّم) وأهل بيته الطّاهرين (عليهم السلام) وحدهم، بل إنّها حاضرة لكلّ البشر.

يا نفسُ ! فالخطوة الأولى هي أن تصفّي ثقافتك أوّلًا من التّرهات، فالثقافة المعوجّة هي المانعة الأولى، التي تدرأ عنك الفيض الإلهي والتّجلّيات الرّبانيّة.

يا نفسُ ! أو ما قرأت القرآن الكريم، حيث يقول الله تعالى في سورة الشورى[2] : { وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ }.

يا نفسُ ! إنّ الله سبحانه وتعالى يقول بأنّ الله يكلّم البشر إمّا كذا أو كذا. فهل أنت مستوعبة ما يقوله الله جلّت قدرته ؟ إنّ كلامه فصيح بليغ واضح بيّن لا شبهة فيه، فلماذا يا نفسُ ! لا تستقيمين ؟ ولماذا يا نفسُ ! لا تتعرّضين لهذا النّسيم الرّحماني ؟

---

[1] { حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ } (سورة المؤمنون ٩٩ - ١٠٠).

[2] (سورة الشورى ٥١).

يا نفسُ ! والخطوة الثانية هي أن لا بدّ من تصفية الذّات، كما يقول السيّد حسين العالم قدّس سرّه. لا بدّ من تزكية النّفس عما سوى الله، والتّجافي عن دار الغرور، والجهاد الأكبر الذي يفضي إلى الوجدان النّوراني، وإلى روح من الله نفخه فيك، حتى يبزغ ويسطع هذا الرّوح القدسيّ في كلّ وجودك، ويحييك الله بعد أن تكوني ميتة ومقبورة في بدنك المادي، كما يقول الله تعالى في سورة الأنعام[1] : { أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ }.

فانهض إلى التّطهير والتّزكيـة التي تفضـي لوجـدان ونـور سـناها
تفضي لروح النّفخ غير ملوّث فبزوغـه خـتم الـرّدى ومناهـا

يا نفسُ ! الخطوة الثالثة هي أن تجعلي الآخرة أكبر همّك ودومًا نصب عينيك، وأن تتجافي عن دار الغرور، وأن تنيبي إلى دار الخلود. فإذا تيقنت بأنّ النشأة الدّنيا ممرّك إلى دار الخلود، وأن الدّنيا مزرعة الآخرة، وأنّ الآخرة هي دار القرار، وهي دار الحصاد، وأنّ وطنك هناك لا هنا، فحينذاك تكونين قد غيّرت اتجاهك من الدّنيا صوب الآخرة.

يا نفسُ ! يقول الرسول الأكرم محمّد (صلّى الله عليه وآله وسلّم) : <<إنَّ العَبْدَ إذا كانَ هَمُّهُ الآخِرَةَ؛ كَفَّ اللَّهُ تَعَالى عَلَيْهِ ضَيْعَتَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ في قَلْبِهِ، فَلا يُصْبِحُ إلاّ غَنِيًّا. وَإذا كانَ هَمُّهُ الدُّنْيا؛ أفْشَى اللَّهُ تَعَالى ضَيْعَتَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، فَلا يُمْسِي إلاّ فَقِيراً، وَلا يُصْبِحُ إلاّ فَقِيْرَاً>>. ويقول (صلوات الله عليه وآله) : << خيركم أَزْهَدُكُمْ فِي الدُّنْيَا وَأَرْغَبُكُمْ فِي الْآخِرَةِ >>.

يا نفسُ ! وهذا لا يعني انزواءك في الجبال والكهوف، بل أن تكوني وسط معمعة الحياة الدّنيا، وأن تكوني أنشط إنسان على وجه البسيطة، ولكن يجب أن يكون همّك كبيرًا، بكبر عالمك الأكبر الذي انطوى فيك، وأن يكون اهتمامك بالعلل الغائيّة من خلقك، لا أن تكون الدّنيا مبلغ علمك وأكبر همّك، ولا مثل البهيمة همّها علفها !!!

[1] (سورة الأَنعام ١٢٢).

يا نفسُ ! والخطوة الرّابعة هي أن تتفرّغي من غير الله، وتتّجهي إلى الانقطاع إلى الله، والانشغال بذكره وحبّه وعشقه، كما يقول إمامنا عليّ عليه السلام: <<عَظُمَ الْخَالِقُ فِيأَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ>>، وكما يقول إمامنا الحسين عليه السلام: << ماذا وَجَدَ مَنْ فَقَدَكَ، وَمَا الَّذى فَقَدَ مَنْ وَجَدَكَ>>، ويقول عليه السلام في مكان آخر: <<خَسِرَتْ صَفْقَةُ عَبْد لَمْ تَجْعَلْ لَهُ مِنْ حُبِّكَ نَصيباً >>.

يا نفسُ ! فالفراغ من غير الله هو الفراغ من (الأغيار) بعينه، كما يقول أبو عبد الله الحسين، روحي له الفداء: <<أَنْتَ الَّذِي أَزَلْتَ الأَغْيارَ عَنْ قُلُوبِ أَحِبَّائِكَ حَتَّى لَمْ يُحِبُّوا سِواكَ وَلَمْ يَلْجَأُوا إِلى غَيْرِكَ>>.

يا نفسُ ! إذا أنت تيقّنت - فكرًا وعقيدةً ولسانًا وقلبًا وبكلّ وجودك - بأنّ لا إصالة البتّة للموجودات، وإنّما الإصالة للوجود وحده، وأنّ الموجودات هي مجرّد تعيّنات، وأنّها ليست شيئًا مذكورًا، هنالك تتفرّغين كلّيًا من غير الله، لأنّك حينذاك لا ترين إلّا الله.

يا نفسُ ! وهل تعرفين ماذا يعنيه السيّد حسين العالم قدّس سرّه، بأنّ الكمالات الوجوديّة تصل إليك، لأنّه جلّ اسمه ليس ممسكًا طرفة عين ؟ إنّه يعني بأنّ فيضه تعالى حاضر لكلّ إنسان، ولكلّ أفراد البشر، وهو تعالى لا يمسك فيوضاته وتجلّياته عن المستعدّين والمتلقّين طرفة عين. ففيوضاته وتجلّياته متدفّقة منهمرة تملأ الخافقين، ولكن ما أقلّ المتلقّين !!!

يا نفسُ ! فلننظر مليًّا في الكون كي نأتيك بالأمثال، حتى تستوعبي الأمر جيّدًا. فلنضرب مثال الأمواج الكهرومغناطيسيّة التي تملأ الكون، وهي ليست ممسكة طرفة عين، ولكن لا يتلقّاها جهاز التلقّي إلّا إذا كان صالحًا. أمّا إذا كانت الأجهزة فاسدة، فتحرمين من تلقّي تلك الأمواج، رغم أنّ الأمواج تملأ الأثير.

يا نفسُ ! واعلمي أنّ كثيرًا جدًّا من الآيات وردت في القرآن الكريم تحثّ على العمل الصّالح، الذي هو العمل الذي يُصلح جهازك الذي فسد في عالم الكون والفساد. فصلاح جهازك يجعلك مؤهّلًا لتلقي الأنوار الرّبانيّة والفيوضات الإلهيّة التي تملأ الخافقين.

يا نفسُ ! إنّ الله أقرب إليك من حبل الوريد، ولكنّك بعيدة عنه بسبب فساد أجهزتك، وهذا الفساد، مع الأسف الشّديد، يكون مانعًا من تلقّي الأنوار والفيوضات.

يا نفسُ ! أو ما سمعت الله تعالى يقول في سورة الأعراف[1] : { وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ } ؟

يا نفسُ ! أين أعينك التي لا تبصر.. ؟ وأين آذانك التي لا تسمع.. ؟ وأين قلوبك التي لا تفقه..؟ هذه هي الأجهزة المتلقية في وجودك، طمستها بأياديك الجاحدة وأفكارك المعوجّة، ثمّ أنت لا تقومين بالعمل الصّالح لإصلاحها. وبدل ذلك تملئين حياتك بالظّنون والأوهام، وسوء الظّن بهذا أو ذاك، والشّك في عباد الله الصّالحين، كأنك خير محض والآخرون شرّ محض !!! يقول الإمام عليّ عليه السلام: << طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب غيره >>.

إذا ساءَ فِعْلُ المرْءِ ساءَتْ ظُنُونُـهُ وَصَـدَقَ مَـا يَعتَـادُهُ مـن تَـوَهُّمِ

يا نفسُ ! ويؤكّد السيّد حسين العالم قدّس سرّه على دور العلم والمعرفة للإنفتاح على روائع النّفس والكون، ويقول بأنّ تحصيل العلم والمعرفة ينفخ فيك يقظة الرّوح، ويهبك ثروة الحياة الرّوحانيّة.

---

[1] (سورة الأَعراف ١٧٩).

يا نفسُ ! ويقول قدّس سرّه، في مكان آخر، بأنّ العلم والمعرفة تزيد الإيمان قوّة، وتوصل الإنسان إلى المراتب العالية من السّعادة، بل إنّها توصل الإنسان إلى مراتب من الإيمان، يكون العمل فيها وفي وقتها يعادل عمل الثقلين.

يا نفسُ ! ولقد أعطى السيّد حسين العالم قدّس سرّه لذلك مثالًا من إيمان الإمام عليّ عليه السلام يوم الخندق، حتى قال الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلّم) عنه: <<برز الإيمان كلّه إلى الشّرك كلّه>>. وقال (صلّى الله عليه وآله وسلّم) أيضًا: <<لضربة عليّ يوم الخندق أفضل من عبادة الثقلين>>.

يا نفسُ ! ويعزو السيّد حسين العالم قدّس سرّه هذه البطولات التّاريخيّة للإمام عليّ عليه السلام إلى إيمانه القويّ، وإلى سعة علمه ومعرفته، حتى قال سلام الله عليه: <<لَوْ كُشِفَ الْغِطَاءُ مَا ازْدَدْتُ يَقِينًا>>. فعليه صلوات الله خالدة الدّوام، عدد قطر الرّهام، وزنة الجبال والآكام، ما أورق السّلام، واختلف الضّياء والظّلام.

يا نفسُ ! إنّ مكتب السّير والسّلوك ليس مدرسة نظاميّة، حيث تبدأ بدراسة السّير والسّلوك حين الدّخول إليها. فهذه المدرسة لا يدخلها إلّا من وجد في نفسه ميلًا عظيمًا يجذبه إلى الله، على الرّغم من ارتياحه الظّاهري في الحياة، وقفصه الذّهبي في الدّنيا، وتمكّنه من تأسيس حياة طيّبة لنفسه، من الدّراسة المتقدّمة، والعمل العالي المدرّ للدّخل الطيّب، ومنزل يسكنه، وسيّارة تسهّل عليه الحركة، وزوجة وأولاد وما إلى ذلك.

يا نفسُ ! بعبارة أخرى إنّ السّير والسّلوك عمليّة يسّرها الله للكثيرين قبل أن يصلوا إلى المعلّم الرّباني. فعندما تصلين يا نفسُ ! إلى الأستاذ، تكونين قد قطعت شوطًا في السّير إلى الله، وكنت قد تجاوزت الكثير من مراحل القبض والبسط والشّكّ واليقين.

يا نفسُ ! إنّ احتياجنا إلى المعلّم يكون لتكميل المشوار، بحيث يعطينا المعلّم أو الشّيخ جهة واضحة من معالم الطريق في سيرنا إلى الله، وزخمًا لاندفاعنا نحو الله، بحيث نتّجه إلى الله في قفزات وخطوات كبيرة، تسهّل علينا الوصول إلى الله أسرع بكثير، وأسهل بكثير، مما لو اندفعنا وحدنا في هذا الطريق.

يا نفسُ ! إنّ ما يحدث في باطن السّالك في بداية الطريق، هو ما أسمّيه بأنوار اليقين، تشرق في قلب العبد، فيشتاق إلى طريقة السّير والسّلوك، والتّحرّر من قفصه الذهبي في الدّنيا. ويجذبه حبّ الله إلى تغيير نمطه في التّفكير، بحيث تؤثّر كثيرًا على نمط الحياة التي يعيشها. << أَنْتَ الَّذِي أَشْرَقْتَ الأَنْوارَ فِي قُلُوبِ أَوْلِيائِكَ حَتَّى عَرَفُوكَ وَوَحَّدُوكَ [1] >>.

يا نفسُ ! كيف يحدث ذلك ؟ وما هي التّطوّرات التي تطرأ في قلب العبد ؟ أحاول أن أعطيك مثالًا من كتابي (ألف باء العرفان) أو (رسالة يقظان بن حيّ)، وكيف أشرقت أنوار اليقين في قلب يقظان بن حيّ:-

وأحيانًا كان يسمع من أعماقه همسات لطيفة تدعوه إلى الحرية، وإلى الخروج من قفصه الذّهبي، ولكنّه لا يعيرها أذنًا صاغية. وأحيانًا يرى بصيصًا من النور ينفذ إليه من كوّة القلعة، ولكنّه يدير ظهره، ويعزف عن النّظر إليه.

ورويدًا رويدًا تحوّلت الهمسات إلى نداء وهاتف، يدعوه إلى العروج إلى السّماء، والانقلاع عن الأرض، كأنه نداء الوجود يدعو ابنه الضالّ المسكين إلى الاتّجاه إليه، والتّوجّه إلى معارجه، وإلى الرّجوع إلى أصله، والتّوبة والإنابة إلى خالقه وفاطره، والاشتياق إلى أنواره، والتّوق إلى نجواه، والعروج إلى سماواته، والالتحاق بموكب النّور، والاتّصال بمولاه.

---

[1] (من دعاء عرفة للإمام الحسين عليه السلام).

وشيئًا فشيئًا بدأ يقظان يزيح عن عينيه أغشية العمى، ويستيقظ من سباته العميق، ويستعيد وعي الأزليّة والسّرمديّة، ويتذكّر الميثاق الذي أعطاه لـ لله عزّ وجلّ في عالم الذرّ، عندما سئل: <ألست بربكم> فأجاب: <بلى>. وتذكّر عبوديّته لربّ العالمين، وتعجّب كيف انجرف وراء السّراب، وحيلة المضلّين، هاربًا من جنّة النّعيم إلى جهنّم الأوهام، التي تستعر بنار الجهالة، ومن ربّ شفيق رقيق، إلى وسوسة الشّيطان، ومصائد إبليس.

فاعترته حالة غير مألوفة: يهرب من النّاس، ويتوارى عن الأنظار، ويقضي ساعات طويلة في خلواته وصلواته، يبكي بكاء الحزين، ويئنّ أنين الكليم، يذرف دموعًا على أيام جهالته وطيشه وغفلته وغروره وتكبّره وعجرفته، لا يتنعّم بالحياة الطبيعيّة، ولا تبهجه عادات القوم، وأغلال الرّسوم والتّقاليد، ولا يهبّ مع الجماعة لإشعال نار شهواته.

وكان يتكلّم كلامًا غير مألوف، لا يفهمه أصحاب الغفلة، وكانوا يسخرون منه، لأنّهم كانوا يجهلون كلامه. ويعتقد بعضهم أنّه مسحور ويقولون: طرأت عليه أحوال عجيبة، ونظراته زائغة، وأقواله مبهمة، ينزوي عن الناس، ويحبّ الخلوات، يبقى صامتًا مفكّرًا لفترات طويلة، لا يعير اهتمامًا لما حوله، كأنّه في عالم بعيد.

ويعتقد البعض الآخر أنّه قد مسّه الجنون، فهو يتكلّم عن نداء يسمعه، بل أحيانًا عن مشاهد يراها، مما لا يراها الآخرون، ويتمتم بكلمات غامضة، ويسهر الليالي في خلواته، ويعزف عن ملذّاتهم وشهواتهم، وحتى عن الرّغبات والمطامع، التي هي حطب الدّنيا ومصدر حركتها.

ولطالما غذّى حياته البهيميّة بحطب آماله اليابسة، ولطالما تبع تمنّياته الزّائفة، وعاش معهم في سجن الطّبع وإسارته، يتحرّك فيه في حلقات مفرغة، يكدح ويسعى كحمار الطّاحون، لا ينفذ من جلدة الطّبع المخيف، إلى عالم آخر متحرّر من الجهل والظّنون، ومن رعاية وتربية الماضي المجهول، **إلى عالم تشرق عليه الأنوار، وتسود فيه المعرفة واليقين.**

ويتعجّب أصحاب الغفلة ويظنّون أنّه مريض أو مسحور، أو أنّه قد خولط في عقله - كما يقول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في خطبة هَمَّام في نهج البلاغة: << يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ النَّاظِرُ فَيَحْسَبُهُمْ مَرْضَى وَمَا بِالْقَوْمِ مِنْ مَرَضٍ وَيَقُولُ لَقَدْ خُولِطُوا وَلَقَدْ خَالَطَهُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ لَا يَرْضَوْنَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الْقَلِيلَ وَلَا يَسْتَكْثِرُونَ الْكَثِيرَ فَهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ مُتَّهِمُونَ وَمِنْ أَعْمَالِهِمْ مُشْفِقُونَ >>.

ويقال: إنّه حاول مرارًا الفرار من معبد الشّيطان - حيث الشّهوات والرّغبات - ولكن القلعة السّوداء تحرسها غلب الرّجال، بيدهم مقامع من حديد، فمنعه الحراس من الفرار.

وفي الأيام التالية اجتمع حوله مدّعو النّزاهة والاستقامة، وحاولوا إبداء النّصيحة له بترك الأوهام، وبألّا يفسد على نفسه وعلى الآخرين راحة البال التي اعتادوها، تحت خيمة الملذّات والرّغبات والشّهوات.

إلّا أنّ يقظان موجود ملكوتي، انهال عليه ركام الأتربة، وغبار الفحم الأسود، وهو في طريقه إلى الأرض الملعونة، أثناء هبوطه من العوالم العلويّة. فهذا الرّكام الأسود من القمامة والأوساخ ، **في داخله درّة هي أكثر شفافية وأرقّ من جاذبية المغناطيس، وألطف وأحنى من رحم الأم، تحمل في ثناياها روح المعرفة والعرفان، حيّة نابضة وبيضاء ناصعة**، فمتى يا ترى تزال الأتربة، ويغسل الغبار الأسود، من فوق هذه الدّرّة البيضاء !

فهو لا يقتنع بكلام أهل الدّنيا، ومنهم من يتظاهرون بالدِّين، وازدانوا بثياب الصّلاح والسّداد، ولكن ديدنهم حبّ المال والنّساء والشّهوات. وحتى العوالم العلويّة التي تكلّم عنها الأنبياء والأولياء قد تصلّبت في أيديهم، وأضحت حديثًا عن النّساء والشّهوات والخمر والمسكرات، وتبلورت حديثًا دنيويًّا لا تشتمّ منه رائحة التّوحيد والتّجريد، والملأ الأعلى، والموجودات الملكوتيّة. فقد غطّت المادة أذهانهم، فهل إلى النّورانيّات والرّوحانيّات من سبيل ؟

فهل تنهار القصور الرّمليّة من فوق الأذهان، وتبدأ الصّلاة بحضور القلب، ويطّلع على الخلود والملأ الأعلى من نافذة القلب ؟ فمتى يخشع القلب ويبدأ الجمع في نورانيّته، ومتى يتبدّد

الظّلام وتشرق الأنوار، ومتى يهدأ لغو اللسان، ويستقرّ القلب، وتشرق الأنوار في الجنان، وتسكن الأصوات، ويضمحلّ الهرج والمرج والتّمريج من القلب الذي هو منزل القدسيّات، وتنزل السّكينة على روحه الحسّاسة المعذّبة التّوّاقة إلى ربّها ؟

يهتدي يقظان بنجم الشّعرى في الليلة الظّلماء، ويتيقّن أنّه لا يمكن الوصول إلى دار السّكينة والسّلام من دون المعرفة. فيسلك سبيل العرفان، ويبدأ بإسقاط أردية الموت عن روحه، كما تُسقط الشّجرة أوراقها في الخريف، وينفض غبار الظّلم عن كلّ جوارحه، جارحة جارحة، ويكشف حجب الظّلمات عن ذهنيّاته وأفكاره، ويبحث عن جذور الذّنوب والمعاصي في أعماق أعماقه، ويصارع الشّياطين في ظلمات نفسه، ويبدأ بمعرفة نفسه ودقائقها وحيلها ومصائدها ومكرها وخداعها، حتى لا يلوم غير نفسه عدالة وإنصافًا، وحتى يجد بأمّ عينه كيف تلعب الفئران والجرذان في ظلمات نفسه.

وكيف يتأتّى ذلك من دون التعرّض لدروس المعرفة والحكمة، والإصغاء إلى النّغمات اللطيفة من عالم العلويات، ومن دون التسليم للتّعليمات السّماويّة، وتطبيقها في نفسه درسًا درسًا ؟

إلّا أنّها أصعب لون من ألوان التّلمذة، لا يحفظ فيها التّلميذ دروسه ويحشي ذهنه، **بل يطبّقها في نفسه، ويسقط كلّ الإضافات على فطرته العلويّة، وذلك بتصفية ذهنيّاته من كلّ ما اكتسبه خلال عمره من محيطه وبيئته من علم ناقص**، ربّما كان ضربًا من ضروب الجهل المركّب.

يا نفسُ ! وطبعًا تسهل صعوبات هذه التّلمذة عندما تكونين باحثة عن ضالّتك ... وهل تصلين إلى السّعادة إلّا عندما تجدين ضالّتك، وهل ضالّة المؤمن غير الحكمة !

يا نفسُ ! وأحكم شيء يربطك بالعالم السّفلي هو التعلّقات القلبيّة بمتاع الدّنيا. وبالمعرفة يتيقّن الإنسان بأنّ المتاع لا يستحقّ كلّ هذه التّعلّقات القلبيّة، وكلّ هذه الرّغبات والشّهوات والغرائز.

يا نفسُ ! فما أحسن أن ينقلع الإنسان عن المتاع، وأن يوجّه كلّ قواه القلبيّة والغريزيّة لإنقاذ الدّرّة البيضاء من هيمنة القمامة والأوساخ التي تراكمت عليها.

يا نفسُ ! وربّ قائل يقول: سأضحى فقيرًا ومحتاجًا إن أنا تركت تعلّقاتي بمتاع الدّنيا، وهل الحاجة والفقر هي رسالة العرفان ؟ الجواب هو طبعًا "كلا"، فالزّهد الذي يوصي به هو "أن لا تأسى على ما فاتك وأن لا تفرح بما أتاك"، وهو السّموّ والتّحرّر عن تعلّقاتك القلبيّة بما فاتك أو أتاك من المتاع الدنيوي.

يا نفسُ ! فالعرفان لا يلغي قوّة العقل المادي أو عقل المعاش، فما أكثر الغنى والثّروة بين العرفاء، فغنى النبيّ سليمان عليه السلام ليس بسبب علاقته بالمال، وفقر النبي عيسى عليه السلام ليس بسبب قصر عقله المادي. فكلاهما عارف زاهد في متاع الدّنيا، لسموّهما وتحرّرهما من العالم السفليّ، وحبّ المال والجاه والدّولة الأرضيّة: { تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ } [1] .

لقد اهتدى يقظان إلى النّور في آخر النّفق ...

[1] (سورة القصص ٨٣).

الجوهر الكثيف

يقول نبيّ الله إدريس عليه وعلى نبيّنا محمّد صلّى الله عليه وآله أفضل الصّلاة وأتمّ التّحيّات في الفصل الثالث من كتاب معاذلة النّفس وهي صحيفة من صحف إدريس عليه السلام:

يا نفسُ ! إنّ الأعراض الحالّة في الجّوهر الكثيف عدمت الاتفاق، وأَتَتْ إلى الاختلاف والمضادّة، فتحرّزي يا نفسُ منها وانحرفي عنها، فهي المعنى الذي حُذِّرته والخوف الذي خوِّفته.

يا نفسُ ! أنت وحيدة وهي متكاثرة، وأنت متفقة وهي مختلفة، وأنت ناصحة وهي مخادعة، وأنت حقٌّ موجود وهي لا حقيقة لوجودها، وأنت خير دائم باق وهي زخارف وتمويه مستحيل فانٍ.

فأَعْرِضي يا نفسُ عنها، واحذري استعبادها إيّاك وقطعها لك وخذلانها بك. فلا تخرجي يا نفسُ عن ذاتك الوحيدة الحقّية الشّريفة، وتتبعي تكاثرها واختلافها ومحالاتها [1] وخساستها وعَوَرها [2] ، فتضلّي وتهلكي.

يا نفسُ ! إنّ الإرادة في الوجود أرادت أن تتجلّى في جوهر كثيف فقالت[3] : <كن>: فكان، فتجلّت في عالم مشهود محسوس ملموس، وتجلّت في أرض مشهودة محسوسة ملموسة، وتجلّت في جماد ونبات وحيوان مشهود محسوس ملموس، وتجلّت في إنسان مشهود محسوس ملموس.

---

[1] ومحالها (في بعض النسخ).

[2] غدرها (في بعض النسخ).

[3] لَا بِصَوْتٍ يَقْرَعُ وَلَا بِنِدَاءٍ يُسْمَعُ وَإِنَّمَا كَلَامُهُ سُبْحَانَهُ فِعْلٌ مِنْهُ أَنْشَأَهُ (من كلام الإمام عليّ عليه السلام).

يا نفسُ ! إلّا أنّ الإرادة نفسها جوهر لطيف، غير مشهود وغير محسوس وغير ملموس، ومظاهرها وتجلّياتها جوهر كثيف، وله أعراض حالّة عدمت الاتفاق، ومن أعراضها الملازمة لها، الاختلاف والتّضادّ والتّباين والتّعادي والتّباعد والتّفرّق والتّشتّت والتّبعثر والتّكاثر.

المتضادّات والمتباينات

يا نفسُ ! أراد الله أنْ يُعرف، وهو الكنز المخفيّ، فقال في حديثه القدسي: << كنتُ كنزًا مخفيًّا فأردتُ أنْ أُعرف فخلقتُ الخلقَ لكي أُعرف >>. فخلق المتضادّات والمتباينات والمتعاديات والمتباعدات والمتكاثرات، بأعداد هائلة لا تتصوّرها العقول والألباب.

بِتَشْعِيرِهِ الْمَشَاعِرَ [١] عُرِفَ أَنْ لَا مَشْعَرَ لَهُ[٢] ، وَبِمُضَادَّتِهِ بَيْنَ الْأُمُورِ عُرِفَ أَنْ لَا ضِدَّ لَهُ، وَبِمُقَارَنَتِهِ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ عُرِفَ أَنْ لَا قَرِينَ لَهُ. ضَادَّ النُّورَ بِالظُّلْمَةِ، وَالْوُضُوحَ [٣] بِالْبُهْمَةِ[٤] ، وَالْجُمُودَ [٥]بِالْبَلَلِ[٦] ، وَالْحَرُورَ [٧] بِالصَّرَدِ[٨] ، مُؤَلِّفٌ بَيْنَ مُتَعَادِيَاتِهَا[٩] ، مُقَارِنٌ بَيْنَ مُتَبَايِنَاتِهَا[١٠] ، مُقَرِّبٌ بَيْنَ مُتَبَاعِدَاتِهَا، مُفَرِّقٌ بَيْنَ مُتَدَانِيَاتِهَا[١١] .

يا نفسُ ! خلق الله المتضادّات كي يُعرف أنْ لا ضدّ له، وهل تريد أن تعرف لماذا لا يرى الله ؟ لأنّك ترى كلّ شيء بخلفيّة مضادّة، فمثلًا ترى النّور بخلفيّة الظّلام، وترى الظّلام بخلفيّة النّور،

---

[١] بإيجاده الحواس.

[٢] منزّه عن الحواس.

[٣] بياض.

[٤] سواد.

[٥] جفاف.

[٦] رطوبة.

[٧] حرارة.

[٨] برودة.

[٩] ألّف بين المتفرّقات والمتبعثرات والمتشتّتات والمتناثرات.

[١٠] قرن الضّدّ بالضّدّ.

[١١] فرّق بين المتقاربات ... (من كلام أمير المؤمنين الإمام عليّ عليه السلام).

ولو لم يكن ظلام لما عرفت النّور، ولو لم يكن نور لما عرفت الظّلام، فيا ترى كيف يَعرف السّمك الماء أنّه ماء إن لم يكن قد رأى البرّ !

والبّحر في عمق كيلو متر واحد ظلام دامس لا تصله الشّمس، فكيف يا ترى تعرف الأسماك هناك الظّلام ظلامًا إذا لم يكن هناك نور !

قوّة ظهور اللّه

يا نفسُ ! ولأنّ اللّه جلّت قدرته لا ضدّ له فهو لا يُرى من كثرة ظهوره ! وهل يا ترى ترين الشّمس المضيئة في أوضاح النّهار، من كثرة ظهورها، وشدّة ضوئها، وتلألؤ ضيائها، وسبحات إشراقها ! إلّا إذا نظرت إليها من منظار أسود، الذي هو ضدّ بياض ضوء الشّمس، وبلج ائتلاقها، وعلانية برهانها !

يا نفسُ ! وهذه المتضادّات والمتباينات والمتعاديات والمتباعدات والمتكاثرات، بِهَا تَجَلَّى صَانِعُهَا لِلْعُقُولِ، وَبِهَا امْتَنَعَ عَنْ نَظَرِ الْعُيُونِ. لاَ يَجْرِي عَلَيْهِ السُّكُونُ وَالْحَرَكَةُ، وَكَيْفَ يَجْرِي عَلَيْهِ مَا هُوَ أَجْرَاهُ، وَيَعُودُ فِيهِ مَا هُوَ أَبْدَاهُ، وَيَحْدُثُ فِيهِ مَا هُوَ أَحْدَثَهُ ؟! إِذاً لَتَفَاوَتَتْ ذَاتُهُ، وَلَتَجَزَّأَ كُنْهُهُ، وَلاَمْتَنَعَ مِنَ الأَزَلِ مَعْنَاهُ، وَلَكَانَ لَهُ وَرَاءٌ إِذْ وُجِدَ لَهُ أَمَامٌ، وَلاَلْتَمَسَ التَّمَامَ إِذْ لَزِمَهُ النُّقْصَانُ. وَإِذاً لَقَامَتْ آيَةُ الْمَصْنُوعِ فِيهِ، وَلَتَحَوَّلَ دَلِيلاً بَعْدَ أَنْ كَانَ مَدْلُولاً عَلَيْهِ، وَخَرَجَ بِسُلْطَانِ الاْمْتِنَاعِ مِنْ أَنْ يُؤَثِّرَ فِيهِ مَا يُؤَثِّرُ فِي غَيْرِهِ[1] .

يا نفسُ ! ويقول سيّد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة: إلهي تَرَدُّدي فِي الآثارِ يُوجِبُ بُعْدَ الْمَزارِ، فَاجْمَعْني عَلَيْكَ بِخِدْمَة تُوصِلني إلَيْكَ، كَيْفَ يُسْتَدَلُّ عَلَيْكَ بِما هُوَ في وُجُودِهِ مُفتَقِرٌ إلَيْكَ، أيَكُونُ لِغَيْرِكَ مِنَ الظُّهُورِ ما لَيْسَ لَكَ حَتّى يَكُونَ هُوَ الْمُظْهِر لَكَ، مَتى غِبْتَ حَتّى تَحْتاجَ إلى دَليل يَدُلُّ عَلَيْكَ، وَمَتى بَعُدْتَ حَتّى تَكُونَ الآثارُ هِيَ الَّتي تُوصِلُ إلَيْكَ، عَمِيَتْ عَيْنٌ لا تَراكَ عَلَيْها رَقيباً، وَخَسِرَتْ صَفقَة عَبد لَمْ تَجْعَلْ لَهُ مِنْ حُبِّكَ نَصيباً.

---

[1] مقتبس من كلام أمير المؤمنين الإمام عليّ عليه السلام.

إلهي أمَرْتَ بِالرُّجُوعِ إلَى الآثارِ فَارْجِعْني إلَيْكَ بِكِسْوَةِ الأنْوارِ، وَهِدايَةِ الاِسْتِبصارِ، حَتّى أرْجعَ إلَيْكَ مِنْها كَما دَخَلْتُ إلَيْكَ مِنْها، مَصُونَ السِّرِّ عَنِ النَّظَرِ إلَيْها، وَمَرْفُوعَ الْهِمَّةِ عَنِ الاِعْتِمادِ عَلَيْها.

يا نفسُ ! وفي مكان آخر يقول عليه السلام: أَنْتَ الَّذِي أَشْرَقْتَ الأَنْوارَ فِي قُلُوبِ أَوْلِيائِكَ حَتَّى عَرَفُوكَ وَوَحَّدُوكَ، وَأَنْتَ الَّذِي أَزَلْتَ الأَغْيارَ عَنْ قُلُوبِ أَحِبَّائِكَ حَتَّى لَمْ يُحِبُّوا سِواكَ وَلَمْ يَلْجَأُوا إِلى غَيْرِكَ، أَنْتَ المُؤْنِسُ لَهُمْ حَيْثُ أَوْحَشَتْهُمُ العَوالِمُ، وَأَنْتَ الَّذِي هَدَيْتَهُمْ حَيْثُ اسْتَبانَتْ لَهُمْ المَعالِمُ، ماذا وَجَدَ مَنْ فَقَدَكَ، وَماالَّذِي فَقَدَ مَنْ وَجَدَكَ ؟! لَقَدْ خابَ مَنْ رَضِيَ دُونَكَ بَدَلاً، وَلَقَدْ خَسِرَ مَنْ بَغى عَنْكَ مُتَحَوَّلاً.

يا نفس ! وفي مكان آخر يقول عليه السلام: إلهي اطْلُبْنِي بِرَحْمَتِكَ حَتَّى أَصِلَ إِلَيْكَ، وَاجْذُبْنِي بِمَنِّكَ حَتَّى أُقْبِلَ عَلَيْكَ، إلهي إِنَّ رَجائِي لايَنْقَطِعُ عَنْكَ وَإِنْ عَصَيْتُكَ، كَما أَنَّ خَوْفِي لايُزايِلُنِي وَإِنْ أَطَعْتُكَ، فَقَدْ دَفَعَتْنِي العَوالِمُ إِلَيْكَ، وَقَدْ أَوْقَعَنِي عِلْمِي بِكَرَمِكَ عَلَيْكَ، إلهي كَيْفَ أَخِيبُ وَأَنْتَ أَمَلِي، أَمْ كَيْفَ أُهانُ وَعَلَيْكَ مُتَّكَلِي، إلهي كَيْفَ اسْتَعِزُّ وَفِي الذِّلَّةِ أَرْكَزْتَنِي، أَمْ كَيْفَ لاأَسْتَعِزُّ وَإِلَيْكَ نَسَبْتَنِي ؟

إلهي كَيْفَ لاأَفْتَقِرُ وَأَنْتَ الَّذِي فِي الفُقَراءِ أَقَمْتَنِي، أَمْ كَيفَ أَفْتَقِرُ وَأَنْتَ الَّذِي بِجُودِكَ أَغْنَيْتَنِي، وَأَنْتَ الَّذِي لا إِلهَ غَيْرُكَ، تَعَرَّفْتَ لِكُلِّ شَيْءٍ فَما جَهِلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الَّذِي تَعَرَّفْتَ إِلَيَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ، فَرَأَيْتُكَ ظاهِرا فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ لِكُلِّ شَيْءٍ.

يامَنْ اسْتَوى بِرَحْمانِيَّتِه فَصارَ العَرْشُ غَيْبا فِي ذاتِهِ، مَحَقْتَ الآثارَ بِالآثارِ، وَمَحَوْتَ الأَغْيارَ بِمُحِيطاتِ أَفْلاكِ الأَنْوارِ، يَا مَنْ احْتَجَبَ فِي سُرادِقاتِ عَرْشِهِ عَنْ أَنْ تُدْرِكَهُ الأَبْصارُ، يامَنْ تَجَلّى بِكَمالِ بَهائِهِ، فَتَحَقَّقَتْ عَظَمَتُهُ الاِسْتِواءِ، كَيْفَ تَخْفى وَأَنْتَ الظَّاهِرُ، أَمْ كَيْفَ تَغِيبُ وَأَنْتَ الرَّقِيبُ الحاضِرُ ؟ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَالحَمْدُ للَّهِ وَحْدَهُ.

اللّه مخفيّ من شدّة ظهوره

يا نفسُ ! ومن آيات ظهور الله سبحانه وتعالى في صميم حياتنا هو الماء، لأنّه جارٍ ليل نهار في خدمتنا، إلّا أنّنا لا نعرف قدر النّعمة الإلهيّة، لأنّها مبذولة، ولو فُقدت لَعُرِفَ قدرها.

يا نفسُ ! لقد نُقل أن هارون الرّشيد ذهب إلى درويش عارف فقال له عظني، فقال له العارف: "لو أنك كنت عطشانًا، ولم يكن الماء في متناول يديك، وكنت مشرفًا على الهلاك، فبأيّ قيمة كنت مستعدًّا أن تشتري بها كأسًا من الماء يرويك من الظّمأ ؟"

فأجاب هارون الرّشيد: "أهب نصف ملكي في مقابل هذا الماء الذي يرويني من ظمأي". فقال العارف: "ولو أنك شربت ذاك الماء، وفي وقت الحاجة لم يخرج البول منك، فماذا كنت ستهب حتى تتمكّن من البول ؟". فقال هارون الرشيد: "النصف الباقي من ملكي".

فقال العارف: "**ما قدْر المُلْك الذي يُبذل لشرب الماء ودفع البول ؟**".

يا نفسُ ! ولقد قال الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم[1] : { وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ }. فذكر جريان الماء ووصوله إلى بلاد نائية.

يا نفسُ ! وكذلك ذكر عظمة نعمة الماء في سورة الأنبياء[2] : { وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ }.

يا نفسُ ! إنّ الآيات الإلهيّة قد ملأت العالم بعظمتها، ولكن متى يتنبّه الإنسان إلى ذلك ومتى يؤمن بها يا ترى !

يا نفسُ ! ومن الآيات الإلهيّة في ماء المطر أنّه ينزل من السّماء إلى الأرض، وبعد ذلك ينفذ في داخل الأرض إلى جذور الأشجار، ثمّ يصعد إلى أعالي الأشجار.

---

[1] (سورة فاطر ٩).

[2] (سورة الأنبياء ٣٠).

يا نفسُ ! وإذا سألت العالم الطبيعي كيف ينزل الماء من الفضاء إلى الأرض ؟ فسيقول لك لأنّه جسم تجذبه جاذبيّة الأرض إليها. وإذا سألته: إذا كانت الجاذبيّة تجذبه إلى الأرض، فكيف يصعد الماء إلى الأغصان والأوراق والأثمار ؟ فسيقول لك جاذبيّة الشّجر تجذبه إلى أعلى.

يا نفسُ ! وإذا سألته من جعل قانون الجاذبيّة، التي تجذب الماء من أعلى إلى الأرض، ومن أودع الجاذبيّة في الأشجار، التي تجذب الماء في الاتّجاه المعاكس، أي من أسفل إلى أعلى ؟ فبهت الذي كفر !!!

يا نفسُ ! اكشفي الحجاب عن عينيك، وشاهدي النّور الإلهي. إلى متى تكوني وراء الحجب ؟ وإلى متى تعبدي الأوهام ؟ إنّ الله تعالى ظاهر للعيان، وهو من شدة ظهوره مخفيّ عن العيون !!!

يا مَـنْ هُـوَ اخْـتَفَي لِفَـرْطِ نـورِهِ الظّــاهِرُ الْبــاطِنُ في ظُهــورِهِ

يا نفسُ ! إنّ الفيض الإلهي والتّجلّيات الرّبانيّة حاضرة لكلّ فرد من أفراد البشر، ولكن شهودها يستلزم تصفية الذّات، والتوجّه صوب الآخرة، والفراغ من غير الله، وحينها تصل إليك الكمالات الوجوديّة، لأنه جلّ اسمه ليس ممسكًا طرفة عين.

فقد وردت حكايات كثيرة عن أشخاص كانت الدّنيا نصب أعينهم، ولكن حينما تغيّرت اتّجاهاتهم، وأصبحت الآخرة نصب أعينهم، وتوجّهوا بكلّيتهم إلى الله سبحانه وتعالى، ظهرت أيادي غيبيّة لإيصالهم إلى مقصودهم.

ضرورة الرّجوع إلى اللّه

يا نفسُ ! ومن وفرة هذه المتضادّات والاختلافات والمتباينات والمتعاديات والمتباعدات والمتكاثرات والمتشتّتات والمتفرّقات والمتبعثرات، أراد الله أن يُعرف، ثمّ أمر العارف الذي عرفه أن يُدبر عن هذه الدّنيا، بما تحمله من الاختلاف والتضادّ والتّباين والتّعادي والتّباعد والتّفرّق والتّشتّت والتّبعثر والتّكاثر، حتى يرجع إلى أصله، مصون السرّ عن النّظر إلى آثار الله، في خلق هذه المتضادات والاختلافات، ومرفوع الهمّة عن الاعتماد عليها، وعلى التّكاثر والاختلاف، والأوهام والسّراب، والتّمويه والزّخارف والزّينة ، والرّياء والنّفاق والمخادعة والكذب، وكلّ ما هو باطل.

يا نفسُ ! إنّ الله خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا [1] . لذا خلقك في هذه الدّنيا، في جوهر كثيف، والتي هي دار المتضادّات والاختلافات والمتباينات والمتعاديات والمتباعدات والمتكاثرات والمتشتّتات والمتفرّقات والمتبعثرات، من حرّ وبرد، ووجع وألم وراحة، وجوع وعطش وشبع ورواء، ولذّة ومحنة، وكبد وسعادة، واضطراب وسكينة، وقلق وطمأنينة، وفقر وغنى، ونوم ويقظة، وصدق وكذب، وأمانة وخيانة، وعفّة وفجور، ونصيحة ومخادعة، وإخلاص ورياء ونفاق، وأسود وأبيض، ونور وظلام، حيث لا استقرار للإنسان ولا قرار.

حتى إذا عرف الله من كلّ هذه المتضادّات، كدح للرجوع إلى أصله كدحًا حتى يتّصل بأصله.

كمثل والد شفيق رأى أنّ ابنه لا يتعلّم بالنّصائح وبتجارب الآخرين، فقذف به في معمعان الحياة المضطربة أمواجها، والمتلاطمة تيّارها، والمتراكمة زخّارها، تحمله على متن الرّيح العاصفة،

[1] (سورة الملك ٢).

والزّعزع القاصفة، حتى ينتبه ابنه من غفلته وسباته، ثمّ يرجع إلى صوابه، طائعًا مستسلمًا لوالده الشّفيق.

يا نفسُ ! أنت جوهر لطيف ألبسك الله الجوهر الكثيف، وقذف بك في معمعان عوالم غريبة عن لطافة جوهرك، ولله في ذلك حكمة عظيمة، ليبلوكم أيّكم أحسن عملًا. فإذا أخلدت إلى الدّنيا وكلك الله إلى الدّنيا، وإذا أخلدت إلى اللذّات وكلك الله إلى اللذّات، ولم يُرك لذّات خفيت عنك، وهي ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على بال بشر.

يا نفسُ ! هنا في هذه الدّنيا، وفي الجوهر الكثيف، تمتحن قابليّاتك، حتى يميز الخبيث من الطيّب، والحديد من الذهب. فكلكم معادن، وهنا في هذه الدّنيا، تُختبر هذه المعادن، فإمّا شقيّ وإمّا سعيد.

ولا تيأسوا من روح اللّه

يا نفسُ ! والطريف في الأمر ، أنك ترين مزبلة تقرفين من منظرها ومن رائحتها الكريهة، ولكن هناك في البشر نظائر الذّباب والبعوض والحشرات الحقيرة، وهي تحبّ العيش في المزبلة، بل تتغذّى منها غذائها المقرف الكريه.

يا نفسُ ! فعلى من تشفقين يا ترى ! هذه الحشرة الحقيرة تفكّر نفسها علّامة الدهر، وتنتقدك لأنك تقرفين منها. هنا أتون الامتحانات ! هنا دار الفتون ! يقول تعالى[1] : { وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا }.

فتحرّزي يا نفسُ ! من الحشرات الحقيرة التي تتمتّع بالأغلبيّة السّاحقة في هذه الدّنيا. يقول تعالى [2] : { وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ }.

يا نفسُ ! وقد ذكرت في الجزء السّابع من كتابي أسرار النفس البشريّة فصل (الدّنيا حلبة السّباق) عن هؤلاء الذين سمّاهم أمير المؤمنين عليّ عليه السلام بـ همج رعاع أتباع كلّ ناعق يميلون مع كلّ ريح، وذكرت أنّهم هم الأكثريّة في هذه الدّنيا.

يا نفسُ ! وذكرت أن لا ييأسنّ أحد من روح اللّه، فإنّه لا ييأس من روح اللّه إلا القوم الكافرون. فربّما خرج من هؤلاء الذين نسمّيهم همج رعاع، من تاب إلى اللّه توبة نصوحًا، فرفعه اللّه إلى مقام الصّالحين.

---

[1] (سورة طه ٤٠).

[2] (سورة الأَنعام ١١٦).

يا نفسُ ! وذكرت في فصل تحت مسمّى (من انقطع إلينا رفعناه مقامًا عليًّا)، في نفس الجزء السّابع، مثلًا واحدًا من هؤلاء، كان من العصاة في زمن موسى عليه السلام ، فتاب إلى الله توبة نصوحًا، فرفعه الله إلى مقام عليّ منيع.

يا نفسُ ! وذكرت أن لا تنمحي من ذاكرتنا قصّة حرّ بن يزيد الرّياحي، الذي كان من قادة جيش عبيد الله بن زياد، وكيف ضايق الإمام الحسين عليه السلام وهو في طريقه إلى الكوفة، ومنعه من السّفر إلى الكوفة، وغيّر مسار طريقه إلى كربلاء، وكيف جعجع [1] بقلوب الهاشميّات، وأزعج قلوب العلويّات، من أهل بيت رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم.

ولطمأنة هؤلاء أكثر أورد هنا حديثين لحبيبي رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم):

الأولى: إنّ الرّجل ليعمل الزّمن الطويل بعمل أهل الجنّة ثمّ يختم له عمله بعمل أهل النار، وأن الرّجل ليعمل الزّمن الطويل بعمل أهل النّار ثمّ يختم عمله بعمل أهل الجنّة.

والثانية: إنّ الرّجل ليعمل عمل الجنّة فيما يبدو للنّاس، وهو من أهل النّار. وإنّ الرّجل ليعمل عمل النّار فيما يبدو للنّاس، وهو من أهل الجنّة.

يا نفسُ ! وأكبر مثالين في التّاريخ لهذين الحديثين الشّريفين هما: حرّ بن يزيد الرّياحي وعمر بن سعد، حيث الأول انتبه في اللحظة الأخيرة من سباته وترك جيش الضّلال والتّحق بجيش الهداية والخلاص، أمّا الثّاني فكان إمام المسجد طوال حياته يصلّي بالنّاس، ولكنّه في باطنه كان يحمل حبّ الدنيا، فغرّته الدّنيا وأقدم على قتل سيّد الشّهداء أبي عبد الله الحسين عليه السلام.

[1] جعجع في المكان: قعد فيه على غير طمأنينة. جعجع بالقوم: ألزمهم الجعجاع.
والجعجاع: المكان الضيّق الخشن. معركة الحرب. الأرض الجدبة.

أنت المونس لهم حيث أوحشتهم العوالم

يا نفسُ ! تحرّزي من عالم التّكاثر، فأنت الوحيدة والدّنيا متكاثرة، وفي كأس كلّ سالك خمرة الذّكرى الأزليّة الأبديّة التي يحتسيها وحده، عندما يكون صامتًا مصغيًا إلى ذاته العميقة في وحدته. لا يستطيع أحد أن يعلن له شيئًا غير ما هو مستقرّ في فجر معرفته. إنّه في السّكينة وحدها يستطيع السّالك أن يجد الكنز في أعماق أعماقه.

يا نفسُ ! فارجعي إلى وحدتك حيث الأنس الأكبر ، فإنّك غريبة في هذا العالم.

يا نفسُ ! أما سمعت الإمام الحسين عليه السلام وهو يقول في دعاء عرفة: أَنْتَ المُؤْنِسُ لَهُمْ حَيْثُ أَوْحَشَتْهُمُ العَوالِمُ.

يا نفسُ ! احتسي خمرة الذّكرى الأزليّة الأبديّة في وحدتك، في صمت عميق، في السّكينة المطلقة، في أعماق أعماقك !

يا نفسُ ! كوني كما أنت في القبر الآن، لا مؤنس لك إلّا هو، لا مخاطب لك إلّا هو، لا مضاجع لك إلّا هو، لا رفيق لك إلّا هو، لا شفيق لك إلّا هو، لا صاحب لك إلّا هو، لا خليل لك إلّا هو، لا حبيب لك إلّا هو.

يا نفسُ ! قال حبيبي رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم): << موتوا قبل أن تموتوا >>.

يا نفسُ ! فموتي قبل أن تموتي. كيف ؟ أن تنقطعي إلى الله، وأن ترجعي إلى وحدتك، وأن تضعي نفسك مكان الميّت، كأنك ميّتة، ثمّ تقرئي كتابك كما أمر الله تعالى حيث قال عزّ وجلّ[1] : { اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا }.

[1] (سورة الإسراء ١٤).

وحدة الوجود

يا نفسُ ! إنّ وحدة الوجود هو عالم التّوحيد بعينه، الذي هو كلّه نور وأنس وسرور، وأنّ الظّلمة والوحشة والعذاب لا تجد إلى هذا العالم سبيلًا.

يا نفسُ ! فما هو عالم التّوحيد وعالم وحدة الوجود، الذي يتكلّم عنه والدي السيّد حسين العالم قدّس سرّه بهذه الثقة والاطمئنان ؟ فلو كنت شفّافة ونورانيّة، لقرأت صفحات كتابك الذي تحملينه في فطرتك، ولشاهدت بأنّه عالم القدس وفي حضرة الأنس، وهو العالم الذي نقرّ بألسنتنا على الدّوام بانتمائنا إليه [1] بقولنا : { إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ }.

يا نفسُ ! ولكن الغالبيّة الضالّة، على الرّغم من قول هذا الذّكر العظيم باللسان، إلّا أنّهم لا يقرّون بهذه الحقيقة قلبيًّا ووجدانيًّا ووجوديًّا. أليسوا هم أتيه من قوم موسى، إذ أرادوا الوطن، ولكنّهم انجرفوا إلى التيه انجرافًا !!!

يا نفسُ ! فلذلك فَهُم يسخرون ويستهزؤون بوحدة الوجود الذي ننتمي إليه ، ونحن إليه راجعون، إن طوعًا أو كرهًا !!! إن طوعًا فنعيم مقيم، وإن كرهًا فعذاب عظيم. لماذا لا يقرّون ؟ لتعصّبهم الطاغي عليهم، ولوجود الحساسيّة لديهم ضدّ بعض الأسماء، فَهُم أهل الأسماء لا أهل المعاني. ومالهم به من علم ! إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ [2] !!! وإن رجعوا إليه كارهين فعذاب عظيم، وستبدي لهم الأيام بأنّ جنايتهم على أنفسهم لا على غيرهم، فعلى أهلها جنت براقش !!!

يا نفسُ ! هذا هو وحدة الوجود الذي يسخر منه كثير من أنصاف العلماء، ويسخرون من محيي الدّين بن العربي لتأكيده المطلق على هذه الحقيقة، والسّخرية لا تنبع إلّا عن جهل بما يقع في

---

[1] (سورة البقرة ١٥٦).

[2] (سورة النجم ٢٣).

الوجود من الحقائق، التي يراها رجال الله وأصحاب البصيرة النافذة. يقول الله تعالى في سورة الصافات[1] : { بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ }.

يا نفسُ ! وأتعجب كيف يكون هذا التناقض فيهم ؟ يردّدون الحقائق القرآنيّة بلسانهم ويقولون (إنا لله وإنا إليه راجعون)، ثمّ أنّهم يستنكفون عن قول (إنا للوجود وإنّا إليه راجعون) وعن قبوله.

يا نفسُ ! لا أدري هل هم يعيشون في الألفاظ أم في المعاني ؟ بل قولي لي إذن ماذا يفهمون من قوله تعالى في سورة العنكبوت[2] { بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ } ؟

يا نفسُ ! فهل هم ينشدون الآيات البيّنات في الألفاظ والكتب ؟ ألا يدرون أنّ الآيات البيّنات هي المعاني العظيمة في صدور الذين أوتوا العلم ؟ وهل يقرّون بظلمهم إذ يجحدونها ؟

يا نفسُ ! يقول السيّد حسين العالم قدّس سرّه بأنّ أرباب الهمم من البشر لا يقرّ لهم قرار، حتى يصلوا بأنفسهم إلى وحدة الوجود، وكلّ وجودهم في سعي حثيث للوصول إليها في همّة وإصرار. ويضيف بأنّ عالم وحدة الوجود عالم تتجرّد فيه كلّ الأشياء عن قوقعة النّفس، وتصبح الله الأحد، فهناك لا (أنا).

يا نفسُ ! وإذا أردت أن تفهمي ما يعنيه السيّد، فاخرجي من قوقعة النّفس، تنحلّ لك كلّ المشاكل. فإنّك أسيرة هذه القوقعة ويا للأسف ! فافطمي النّفس وإلّا شبّت كالطفل على حبّ الرّضاع، وعلى حبّ القوقعات !!!

والنفسُ كالطفلِ إن تهملهُ شَبَّ على حُبِّ الرَّضاعِ وإنْ تَفْطِمْهُ يَنْفَطِم

---

[1] (سورة الصافات ١٢).

[2] (سورة العنكبوت ٤٩).

يا نفسُ ! فكلّ سالك يتمنّى أن يصل إلى وحدة الوجود، لأنّ الوجود هو موطنه الذي افتقده، فهو ينشده بكلّ قوّة، وفي همّة وإصرار. فهم يعشقون أن يفنوا في عالم التّوحيد فناءً محضًا، يذوب فيه (الأنا) بكلّ صوره التي لا تعدّ ولا تحصى، وهذا هو حقيقة التّوحيد، وغيره إمّا شرك جليّ أو شرك خفيّ، الذي هو أخفى من دبيب النمل على الصّفا في الليلة الظّلماء، كما يقول الرّسول الأعظم محمّد (صلّى الله عليه وآله وسلّم): <<الشِّرْكُ في أمتي أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّملة عَلَى الصَّفَا فِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ[1] >>.

يا نفسُ ! من كتاب بحر المعارف ما معناه إجمالًا، أنّ البشر كانوا في بدايتهم في وحدة الوجود[2] ، وهو عالم التّوحيد [3] الذي كلّه نور وأنس وسرور، وأنّ الظّلمة والوحشة والعذاب لا تجد إلى هذا العالم سبيلًا، وأنّ أرباب الهمم من البشر لا يقرّ لهم قرار، حتى يصلوا بأنفسهم إلى وحدة الوجود، وكلّ وجودهم في سعي حثيث للوصول إليها في همّة وإصرار، ولسان حالهم يقول:

إمّـــا اللقـــاء ووصـــله في رأسي إمّا فداء الرّأس في سكري وأنسـي

يا نفسُ ! وعالم وحدة الوجود عالم تتجرّد فيه كلّ الأشياء عن قوقعة النّفس، وتصبح الله الأحد، فهناك لا (أنا)[4] .

---

[1] من كتابي قدوة الفقهاء والعارفين.

[2] هذا هو وحدة الوجود الذي يسخر منه كثير من أنصاف العلماء، ويسخرون من محيي الدِّين بن العربي لتأكيده المطلق على هذه الحقيقة، والسّخرية لا تنبع إلّا عن جهل بما يقع في الوجود من الحقائق التي يراها رجال الله وأصحاب البصيرة النافذة. يقول الله تعالى في سورة الصافات الآية ١٢: { بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ }.

[3] هو عالم القدس وفي حضرة الأنس، وهو العالم الذي نقرّ بألسننا على الدّوام بانتمائنا إليه بقولنا: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (الآية ١٥٦ من سورة البقرة)، ولكن الغالبية العظمى منّا لا تقرّ بهذه الحقيقة قلبيًّا ووجوديًّا، فلذلك فَهُم يسخرون ويستهزؤون بوحدة الوجود الذي ننتمي إليه، ونحن إليه راجعون، إن طوعًا أو كرهًا !!! إن طوعًا فنعيم مقيم، وإن كرهًا فعذاب عظيم.

[4] بل فناء محض في عالم التّوحيد يذوب فيه (الأنا) بكلّ صوره التي لا تعدّ ولا تحصى، وهذا هو حقيقة التّوحيد، وغيره إمّا شرك جليّ أو شرك خفيّ، الذي هو أخفى من دبيب النّمل على الصّفا في الليلة الظّلماء، كما

يقول الرسول الأعظم (صلّى الله عليه وآله وسلّم): <<الشِّرْكُ في أمتي أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّملة عَلَى الصَّفَا فِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ>>.

عندك الوقت لإصلاح نفسك

يا نفسُ ! في هذه الحالة راجعي نفسك مليًّا، وقولي: { ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ[1] }، كما يقوله المحتضر، لكنّه يتلقّى الجواب المجلجل: { كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ }[2] .

يا نفسُ ! ولكن أجلك لم يصل بعد، وعندك الوقت الكافي لإصلاح ما فاتتك من الفرص الذّهبيّة. فاعلمي يا نفسُ ! إنّك الجوهر اللطيف، وأنّ أعراض الجوهر الكثيف قد غرّتك، بحيث ظننت أنّ السّراب هو الماء، فجريت وراءه كما تجري الهيمى في الصّحراء.

يا نفسُ ! عندك الفرصة الكافية كي تنتزعي نفسك من الشّحّ. فقد قال الله تعالى[3] : {وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}. فسابقي وسارعي إلى الخيرات في الضّعفاء، كي تغسلي الأحزان عن أرواحهم، كي تشبعي الأمعاء الغرثى، كي تشفي الغليل من غلّته، كي تروي أكبادهم الحرّى، كي ترحمي المسكين وابن السبيل، كي تغفري العثرات والكبوات، كي تعفي عمّن ظلمك، كي تحلمي عمّن أغلظ وأساء لك في القول، كي تصلي من قطعك، كي تحسني إلى من أساء إليك.

يا نفسُ ! سارعي إلى الخيرات كي تستحقّي الجنّات، والهي عن الشّهوات واللذّات، وترقّبي الموت في كلّ حين، وازهدي في الدّنيا.

يا نفسُ ! ارجعي إلى وحدتك واخرجي من عالم التّكاثر، بكلّ ما فيه من الاختلاف والتّضادّ والتّباين والتّعادي والتّباعد والتّفرّق والتّشتّت والتّبعثر، وبكلّ ما فيه من الكذب والمخادعة والرّياء

---

[1] (سورة المؤمنون ٩٩ - ١٠٠).

[2] (سورة المؤمنون ١٠٠).

[3] (سورة الحشر ٩)، (سورة التغابن ١٦).

والنّفاق والزّخارف والزّبرج والزّينة والتّمويه، وبكلّ ما يشدّك إلى هذه الدّنيا الحقيرة، التي تلهيك عن قيم السّماء.

فقد قال الله تعالى في سورة التكاثر[1] : { أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ * كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ * ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ }.

فارجعي إلى فصل لاحق، إلى ما قاله أمير المؤمنين الإمام عليّ عليه السلام في خطبته عن قوله تعالى: "حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ".

[1] (سورة التكاثر ١ - ٨).

عن قريب بديارهم تلتحقين

يا نفسُ ! قبور الموتى تزورين، وأنت في سكرة الغفلة ترتعين ! أما ترين أنّهم أخلوا مكانهم في الدّنيا، فلا أمل لرجوعهم، ولا مكان لهم بين الأحياء، ولم يخلّفوا لك يا نفس إلّا درسًا وموعظة وعبرة للمعتبرين، فأنت من اللاحقين، وهم من السّابقين، عن قريب بديارهم تلتحقين، وفي اللحود الضيّقة تنامين، وفي خرابات القبور تسكنين.

يا نفسُ ! يا ترى كيف تغفلين، وأنت على رؤوسهم تطئين، وعلى أجسادهم تقفين، وفيما تركوا ترتعين، وفي خراباتهم تسكنين ! وهم أبدان خوت، وحركات سكنت، وأجساد بليت، وعظام نخرت، ولحوم أكلت، ودماء شربت، كانوا جميعًا فتشتّتوا، وآلافًا فافترقوا، عميت أخبارهم، وصمتت ضجيج ديارهم، وأخرس نطقهم، وصمّت آذانهم، وكلحت وجوههم النّواضر، وخوت أجسامهم النّواعم، ولبسوا لباس البلى.

يا نفسُ ! موتاكم أن يكونوا عِبرًا أحقّ من أن يكونوا مفتخرًا، يا نفسُ ! لقد نظر الغافلون إلى موتاهم بأبصار الرّمد، وذهبوا منهم في بحر الجهالة. يا نفسُ ! استنطقي عنهم عرَصات تلك الدّيار الخاوية والرّبوع الخالية !

يا نفسُ ! هم سبقوكم إلى الموت الذي هو غايتكم، كانت لهم مقامات العزّ، وحلبات الفخر، وهم الآن غيّاب لا يرجعون، هم غيّب لا ينتظرون، وشهود لا يحضرون، سقوا كأسًا بدّلتهم بالنّطق خرسًا، وبالسّمع صممًا، وبالحركات سكونًا، فكأنهم صرعى سُبات.

يا نفسُ ! موتاكم جيران لا يتأنّسون، وأحبّاء لا يتزاورون، بليت بينهم عُرَا التّعارف، وانقطعت منهم أسباب الإخاء ، فكلهم وحيدٌ وهُمْ جميعٌ ، مدّت الآجال لهم حتى يصلوا إلى عذاب أليم أو نعيم مقيم، حسب ما اختاروا من طريقهم في الحياة الدّنيا، بمحض اختيارهم.

يا نفسُ ! موتاكم ضيّقت عليهم لحودهم، وتوارثهم الوحشة، فانمحت محاسن أجسادهم، وقبّحت صورهم، وطالت في مساكن الوحشة إقامتهم، ولم يجدوا من الكرب فرجًا، ولا من الضّيق متّسعًا.

يا نفسُ ! لو كشف لك عنهم محجوب الغطاء ! وقد أكلت أسماعهم بالهوامّ، فأصابها الصّمم، واكتحلت أبصارهم بالتّراب حتى خسفت، وتقطّعت الألسنة في أفواههم بعد ذلاقتها، وعاث في كلّ جارحة منهم بِلًى قبّحها، مستسلمين، فلا أيدٍ تدفع، ولا قلوب تجزع، ما أفظع أشجان القلوب ! وما أكثر أقذاء العيون !

يا نفسُ ! كم أكلت الأرض من عزيزِ جسدٍ، وأنيقِ لونٍ، غذيَّ ترفٍ، وربيبَ شرفٍ ! ذهبت غضارة عيشهم، ولهوهم ولعبهم، كانوا في ظلّ عيش غفول، ففارقوها رغمًا عنهم.

يا نفسُ ! إذا أنت فهمت واستوعبت حالك بعد الموت، وطبّقت هذه العبر على نفسك في هذه الحياة قبل الموت، فأنت تمارسين الموت قبل الموت، كما قال حبيبي رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم): <موتوا قبل أن تموتوا>>.

أو كما ذكرت في كتابي السّموات السّبع:

فَلَقَـدْ عَلِمْـتُ بِأَنَّ سَـعْيِي فِي الـثَّرَى ... خَلْفَ السَّرَابِ كَمَا جَرَتْ هَيْمَاها [1]

فَـإِذَا رَجَعْـتُ إِلَى الْحَيَـاةِ فَـإِنَّنِي ... أَسْـعَى لِفِعْـلِ الْخَـيْرِ فِي دُنْيَاهـا

فَلَقَـدْ تَبَـيَّنَ مَـا الْمُهِـمُّ عَـلَى الْـثَّرَى ... وَتَبَيَّنَـتْ عَوْجَـاءُ مِـنْ رَشَـدَاها [2]

فَلَقَـدْ أَرَدْتُ الْمَـاءَ لكِـنْ غَفْلَـتِي ... قَـدْ خَيَّبَـتْ مَسْـعَايَ فِي صَحْرَاهـا

وَلَقَـدْ جَرَيْـتُ طَـوَالَ عُمْـرِي نَاشِـداً ... بُقَـعَ السَّـرَابِ لَـفِي رُبَى بَيْـدَاها

قَـدْ غَـرَّنِي وَهَجُ الْحَيَـاةِ عَـلَى الْـثَّرَى ... وَزَبَارِجُ [1] الْأَشْـيَاءِ فِي دُنْيَاهـا

---

[1] هيمي: عطاشى.

[2] الرشدي: الرشد.

بِعْتُ الْخُلُودَ بِبَخْسِ يَوْمٍ خَاطِفٍ [٢] وَحَشَرْتُ نَفْسِي فِي لِئَامِ وَرَاهَا
يَا لَيْتَنِي كَشِفَ الْغِطَا وَأَنا بِهَا أَسْعَى عَلَى ظَهْرِ الثَّرَى مَسْعَاهَا [٣]
قَالَ ارْجِعُونِي عَلَّ لِي كَفَّارَةً مِنْ ثِقْلِ جُرْحِ خَطِيئَةٍ وَأَسَاها
يَا لَيْتَ نَفْسِي قَدْ صَحَتْ مِنْ نَوْمِهَا قَبْلَ الرَّدَى سَكَرَاتِ حَقٍّ مَنَاهَا
يَا لَيْتَنِي أَوْلَيْتُ عَقْلِي حَقَّهُ أَصْغَيْتُ لِلدَّاعِي طَهُورَ نِدَاها
يَا لَيْتَنِي أَدْرَكْتُ صَحْوِي قَبْلَهَا وَتَرَكْتُ ظُلْمَةَ غَفْلَتِي وَكَرَاهَا
أَعْرَضْتُ عَنْ كَلِمِ الْمَوَاعِظِ سَاخِراً وَزَهِدْتُ فِي مَعْرُوفِ أَهْلِ نُهَاها
يَا لَيْتَنِي زَهَّدْتُ نَفْسِيَ فِي دُنًى وَرَغِبْتُ فِي الْأُخْرَى وَعِزِّ بَقَاها
يَا لَيْتَنِي قَبْلَ الْمَنُونِ عَرَفْتُهَا مِنْكُمْ إِلَيْكُمْ إِذْنُهَا وَعَطَاها
يَا لَيْتَنِي أَدْرَكْتُ ذَلِكَ قَبْلَهَا وَسَجَدْتُ لِلّٰهِ عِشاً وَضُحَاها
مَاذَا تُرَانِي فَاعِلٌ بِإِسَارَتِي [٤] فِي ضِيقِ لَحْدِي [٥] وَانْكِمَاشِ ثَرَاها
وَصَحِبْتُ فِيهِ مِنْ مَتَاعِ دَنِيَّةٍ كَفَناً عَلَى جِسْمِي وَرُخْصَ رِدَاها
هَلْ لِي بِرَجْعَةَ لا لِأَعْمُرَ مَنْزِلاً بَلْ كَيْ لِأَعْمُرَ زَادَ يَوْمِ جَزَاها

---

(١) الزّبارج جمع الزّبرج: وهو الزّينة.
(٢) يوم خاطف: اليوم الذي مضى سريعاً.
(٣) أي يا ليتني عرفت كلّ ذلك وأنا حيّ أسعى على الأرض.
(٤) إسارة: أسر.
(٥) اللحد: القبر.

اليقين هو العلم

يا نفسُ ! يؤكّد الله تعالى في سورة التّكاثر مرّتين قائلًا[1] : { كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ }، مؤكّدًا جلّ من قائل بأنّ أبواب العلم سوف تفتّح لك. لأنّ العلم يا نفسُ ! نورٌ يقذفه الله في قلب من يشاء، كما قال سيّدنا محمّد (صلّى الله عليه وآله وسلّم)، فإذا متّ عن جوهرك الكثيف، بدت لك أنوار جوهرك اللطيف، فلقد قال الله عز وجل[2] : { اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ }.

يا نفسُ ! فإذا تخطّيت عالم الظّلام دخلت عالم النّور، لأنّ الجوهر الكثيف عالم الظّلام، والجوهر اللطيف عالم النّور. إنّ ما يحدث في باطن السّالك في بداية الطريق، هو ما أسمّيه بأنوار اليقين، تشرق في قلب العبد، فيشتاق إلى طريقة السّير والسّلوك، والتحرّر من قفصه الذّهبي في الدّنيا. ويجذبه حبّ الله إلى تغيير نمطه في التّفكير، بحيث تؤثّر كثيرًا على نمط الحياة التي يعيشها. يقول الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة: << أَنْتَ الَّذِي أَشْرَقْتَ الأَنْوارَ فِي قُلُوبِ أَوْلِيائِكَ حَتَّى عَرَفُوكَ وَوَحَّدُوكَ >>.

وفي فصل لاحق تحت مسمّى (أنوار اليقين) سوف نأتي بمثل يوضّح ما ذكرناه.

يا نفسُ ! إذا دخلت إلى عالم النّور، أراك الله ملكوت السموات والأرض، كي تصلي إلى مرتبة علم اليقين، كما حصل لأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى[3] : { وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ }.

---

(1) (سورة التكاثر ٣ - ٤).

(2) (سورة النور ٣٥).

(3) (سورة الأَنعام ٧٥).

لأنّ علم اليقين ليس علمًا مكتسبًا، بل إنّه علم يحصل للسّالك خارج عالم المحسوسات، وهو نور إلهيّ يبزغ في قلب السّالك، من نوع العلم الذي ذكره الرّسول الأكرم (صلّى الله عليه وآله وسلّم): << العلم نورٌ يقذفه الله في قلب من يشاء >>.

وللمزيد من المعلومات حول هذا العلم راجع الفصل اللاحق تحت مسمّى (ما هو علم اليقين).

المعرفة القلبيّة الكشفيّة

يا نفسُ ! وبعد ذلك يصل السّالك إلى مرتبة عين اليقين، حين يتطوّر عنده علم اليقين إلى رؤية الجحيم، حيث يقول الله تعالى في نفس سورة التّكاثر[١] : { كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ }.

يا نفسُ ! لقد اقتطفت مثالًا واحدًا من كتاب المجالس لوالدي السيّد حسين العالم قدّس سرّه، والذي ذكرت التفاصيل الكثيرة منها في كتابي (قدوة الفقهاء والعارفين) وفي كتابي (الجزء الثاني من أسرار النفس البشريّة) كالتالي:-

ولذلك فلغرض التّفهيم وتقريب المعنى، أضرب لك مثالًا الذي ضربه الله تعالى لليقين، إذ استعمل مثال النّار والنّور الظّاهري، أضربه لك حتى تفهم كيف أنّ مراتب معرفة النّور الحقيقي هي أيضًا كذلك.

ففي سورة التّكاثر ذكر الله تعالى أولًا المرتبة الأولى[٢] : { كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ }، ثمّ أشار إلى المرتبة الثانية[٣] : { ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ }، وأشار إلى المرتبة الثالثة في سورة الواقعة[٤] : { إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ }.

فالنّاس على قسمين بعضهم لا يتيقّنون بالنّار، والبعض الآخر يعرفون بأنّ النّار جسم لطيف وخفيف. فإذا أصابت النّار أيّ شيء غلبته، وجعلته متّصفًا بصفاتها. فمثلًا لو أصابت

---

[١] (سورة التكاثر ٥ - ٧).

[٢] (سورة التكاثر ٥ - ٦)

[٣] (سورة التكاثر ٧).

[٤] (سورة الواقعة ٩٥).

الحديد البارد، لجعلته حارًّا حتى يظهر أثر النّار عليه، وإذا أصابت الخشب، غلبته وحوّلته إلى رماد. وإذا اشتعل بها الفانوس تنوّر بنورها، فلا تنقص النّار بسبب إنارة الفانوس.

ويعرفون بأنّ النّار تحلّ محلّ الأنوار العلويّة في الظّلمات، وأنّ قليلًا منها لو ظهرت في محفل تحفّه الظّلمات، لجعلت أهل المحفل مسرورين بنورها، ولو أنّها ظهرت حين يبرد الهواء، لجعلت مجاوريها مسرورين بحرارتها.

فالذي عنده علم بالنّار التي تتّصف بهذه الصّفات على قسمين: فبعضهم يقبل بها قبولًا تقليديًّا صرفًا، فهو الذي عنده إيمان قلبي تقليدي. والبعض الآخر يصدّق بالكشف القلبيّ بوجودها، وبأنّها متّصفة بهذه الصّفات، فهو الذي عنده إيمان قلبي كشفي.

وهو على ثلاثة أقسام: فالبعض يرى من بعيد أثرًا من النّار يعني الدّخان، الذي يدلّ على وجود النّار، فيستنبط وجود المؤثّر بسبب هذا الأثر، فهو الذي يحصل عنده **علم اليقين**. والقسم الآخر تنكشف عن عينيه الحجب، ويقترب إلى النّار، ويراها رأي العين، فهو الذي ارتقى إلى مرتبة **عين اليقين**. والقسم الثالث هو الذي وقع في النّار واحترق بها، وعانى حرارتها (سل عن النّار جسم من عاناها)، ثمّ أصبح فانيًا فيها، فهو الذي ارتقى إلى مقام **حقّ اليقين**.

يا نفسُ ! يجب على كلّ إنسان عاقل أن يعلم ويفهم **بأنّ العلّة الغائية للخلقة هو معرفة الله، وأنّ المعرفة لا تكتمل إلّا بالمعرفة القلبيّة الكشفيّة**[1] ، وهي ثلاثة مراتب، أعلاها مرتبة حقّ اليقين. فيجب على الإنسان المجاهدة والمناجاة والعبادة، لعل الله يوصله إلى هذه المرتبة.

---

[1] أي أنّ المعرفة لا تكتمل بالمحفوظات الذّهنيّة، وقراءة الكتب، والعلوم المنقولة والمعقولة - كما يتّصف بها معظم من يسمّونهم بالعلماء. ولكنّ هذه الأشياء لها القدرة على أن تساعد وأن تهيّئ، إلّا أنّها في كثير من الأحيان ومع الأسف الشّديد تنتهي بأنصاف العلماء بأن يرفعوا سيوفهم ورماحهم ويطعنوا بها أبدان الأولياء والعلماء الحقيقيين وقلوبهم الطّاهرة، كما ذكرها العلامة السيّد حسين العالم في كتابه المجالس. وما أكثر منهم من ينكر الشّهود القلبي الكشفي، ويسخر منه ويسخر من العرفاء ويستهزء بهم، ويظنّ أنّ السّخرية والاستهزاء ترفع

يا نفسُ ! يجب أن تناجي ربّك في ظلمة الليالي قائلة: << يا ربِّ يا ربِّ يا ربِّ لا أكاد أنام في ظلمات الليل، إنني أعشق عبادتك، لأنّ حبّك قد فعل بي هذا، حتى استوحشت من غيرك، واستأنست بك وحدك [١] >>.

ولقد كرّر الله تعالى قوله [٢] (كلا سوف تعلمون) مرتين، للتأكيد على تحصيل المعرفة الحقّة تحت أستاذ حكيم[٣] ، أو وليّ مرشد[٤] .

وبعد ذلك يحصل علم اليقين، ومن بعده عين اليقين، ومن ثمّ حقّ اليقين. كيف ؟ إنّ تفاصيل هذه العمليّات القدسيّة موجودة في فصل (علم اليقين وعين اليقين وحقّ اليقين) في كتابي (الجزء الثاني من أسرار النّفس البشريّة).

من قدرهم، وهذا هو مبلغهم من العلم ويا أسفاه عليهم ! لأنّهم يغلقون نوافذ غرفهم بأيديهم، لمنع فيوضات الشّمس من النّفوذ إليهم وإلى غيرهم، ممن يتبعونهم من المستضعفين الفكريين - { وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ } (القرآن الكريم سورة الأنعام ٢٦). فالمعرفة تكتمل فقط وفقط بالمعرفة القلبيّة الكشفيّة، التي ينتهجها العرفاء للوصول إلى الحقّ تعالى.

[١] طوبى لمن استأنس بالله وحده واستوحش من غيره. يقول الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة: <<أَنْتَ الَّذِي أَزَلْتَ الأَغْيارَ عَنْ قُلُوبِ أَحِبَّائِكَ حَتَّى لَمْ يُحِبُّوا سِواكَ وَلَمْ يَلْجَأُوا إِلى غَيْرِكَ>>. فمن الواضح أنّ (الأغيار) هو كلّ ما سوى الله تعالى.

[٢] { كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ } (سورة التكاثر ٣ - ٤).

[٣] إشارة إلى ما قاله الإمام زين العابدين عليه السلام: <<هلك من لم يكن له حكيم يرشده>>.

[٤] إشارة الى قوله تعالى في سورة الكهف الآية ١٧: { وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا }.

يا نفس أنت الخير الدائم الباقي

يا نفسُ ! ارجعي إلى وحدتك، ترين السّكينة هناك في آخر المطاف، وفي بطن السّكينة ترين الكنوز. فإنّ الكنوز في بطن السّكينة. فإن رجعت إلى وحدتك ترين في داخل وجودك اختلافات كثيرة، هي من مخلّفات الماضي، التي تتعلّق بدار الدّنيا، دار الاختلافات والمتضادّات والمتباينات والمتعاديات والمتباعدات والمتكاثرات والمتشتّتات والمتفرّقات والمتبعثرات.

يا نفسُ ! أنت غريبة عنها، فأنت الجوهر اللطيف، وهذه المتضادّات هي الأعراض الحالّة في جوهرك الكثيف التي عدمت الاتفاق. فابدئي جهادك الأكبر بالذّكر المستديم الهدّاف، حتى ينقشع الاختلاف والتشتّت والتفرّق رويدًا رويدًا ، وحتى تصلي إلى أصلك، وهو النفس المطمئنّة والسّكينة والسّعادة، حيث يعمّ الاتّفاق ويخبت الاختلاف.

يا نفسُ ! إنّ المخادعة والكذب هي من مخلّفات حبّ الدّنيا، حيث أنّك تقتنين خصلة المخادعة والكذب، كي تجمعي مقتنيات الدّنيا. فإنّ استئصال هذه الخصال يتطلّب إعراضك وتجافيك عن حب الدّنيا ودار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود.

فلا يبقى فيك إلّا الإخلاص والنّصيحة، ولا ترين حقيقة ومصداقية لوجود الاختلافات والتشتّت والتبعثر هناك.

يا نفسّ ! إنّ الاختلافات والمتضادّات والمتباينات والمتعاديات والمتباعدات والمتكاثرات والمتشتّتات والمتفرّقات والمتبعثرات، ما هي إلّا صدى لأفكارك المعوجّة، وما أكثرها ! هي التي تريك السّراب كواقع، والأوهام كحقيقة، وهي التي تفتّتك من الدّاخل، وتقطّع أوصال شخصيّتك إربًا إربًا. وكلّ هذا يؤدّي بك إلى وديان الهلاكة والضّلالة، وإلى التّيه في الصّحاري والقفار، حيث لا تدرين ما دهاك، بل تظلّين تائهة هكذا في الضّلال.

يا نفسُ ! فأول شيء يجب فعله هو السّيطرة على أفكارك، فإنّ الله تعالى قد خلق عقل المعاش كي تخدمي به مشاغل الدّنيا، فإذا انتهيت من مشغلة ما، فاعلمي أنّ هذه المشغلة لها استمراريّة في أفكارك، وتأخذين بها مشاغلك الدّنيوية إلى محرابك عند الصّلاة. فاحذري من أفكارك، وتعلّمي كيف تسيطرين عليها.

يا نفسُ ! مارسي التّمارين البسيطة التي أعلّمك إياها، كي تنمو عندك موهبة السّيطرة على أفكارك، وتكوني مالكة لأفكارك لا مملوكة لأفكارك.

يا نفسُ ! فإذا تمكّنت من أفكارك، ظهرت عندك بوادر العقل الرّوحاني، الذي يطلّ على مملكة الخلود وهو مملكة الملكوت، ويفتح الله عليك خزائنه التي لا نهاية لها ولا زوال لها، ويفتح عليك الحكمة الإلهيّة، التي تلمّ بعوالم النّاسوت والملكوت والجبروت واللاهوت.

يا نفسُ ! فإذا رجعت إلى وحدتك، وخرجت من عالم التّكاثر، ورجعت إلى سكينتك، وخرجت من عالم التّشتّت والتّبعثر، ورجعت إلى عالم الإخلاص والنّصح، وخرجت من عالم الكذب والخداع والنّفاق والرّياء، رأيت أنّك الحقّ الموجود، وأنّ الأعراض الحالّة في الجوهر الكثيف لا حقيقة لوجودها، ورأيت أنّك الخير الدّائم الباقي، وأنّها محض زخارف وتمويه مستحيل فان.

فأعرضي يا نفسُ ! عنها، وارجعي إلى جوهرك الرّبّاني، واحذري من استعبادها إياك، وقطعها لك، وخذلانها بك. فإنّ عرض الدّنيا يميل إلى استعباد الإنسان الخاسر وقطعه والخذلان به.

فلا تخرجي يا نفسُ ! عن ذاتك الوحيدة الحقّيّة الشّريفة، فهي فطرة الحقّ التي فطرت عليها، واعملي أيّ شيء للبقاء فيها، فإنّها الحقّ الموجود، والخير الدّائم الباقي، وإنّها النّفس المطمئنّة،

والسّكينة الخالدة، التي ليس فيها الاختلافات والمتضادّات والمتباينات والمتعاديات والمتباعدات والمتكاثرات والمتشتّتات والمتفرّقات.

بل كلّها ألفة وقرب وزلفى وإخلاص وتفاني وأثرة وحبّ ومودّة وعشق، لا شوائب فيها، ولا زخارف، ولا تمويه، ولا اختلاف، ولا تكاثر، ولا مخادعة، ولا رياء، ولا نفاق، ولا وهم يبعدك عن الواقع، ولا باطل يشغلك عن الحقّ.

ما هو علم اليقين

يا نفسُ ! الفرق بين علم اليقين والفلسفة الإلهيّة هو الفرق ما بين السّماء والأرض. فعلم اليقين نور يقذفه الله في قلب من يشاء، كما في الحديث النبوي الشريف: << العلم نورٌ يقذفه الله في قلب من يشاء >>، فلذلك فعلم اليقين ينتمي إلى السّماء.

في حين أنّ الفلسفة - بشعبتيها الإلهيّة والماديّة - اختراع بشريّ صرف، وهو من إفرازات المخّ، التي تستمدّ قوّتها من المحسوسات والحواس الخمس، فلذلك فعلم الفلسفة ينتمي إلى الأرض.

يا نفسُ ! إنّه من الأهميّة بمكان، أن نضع الخط الفاصل بين علم اليقين، من ناحية، وبين علم الفلسفة وإفرازات المخّ البشري والعلوم المعقولة والمنقولة، من ناحية أخرى، بحيث لا يحدث خلط عشوائي. ولا يظنّ القارئ المثقف خطأ، أنّه بمحض القراءات في الكتب أو السّماع من الخطباء على المنابر، يمكن الوصول إلى ما ذكره السيّد حسين العالم قدّس سرّه من علم اليقين، ومن ثمّ الوصول إلى هذه المرتبة من الإيمان، التي هي أكمل وأعلى مراتب الإيمان، ألا وهو الإيمان القلبيّ الشّهوديّ.

يا نفسُ ! إنّه من الأهميّة بمكان، أن نذكر هذه الحقيقة، بأنّ مرحلة ما قبل اليقين من الاستدلالات الذّهنيّة والبراهين الفكريّة من علم الفلسفة، التي تشوبها الشّكوك والرّيب، لا تقاس ولا تقارن البتّة بمرحلة ما بعد اليقين، من نوع الاستدلالات والبراهين، التي ذكرها السيّد حسين العالم قدّس سرّه، والتي تتميّز بالاعتقاد الثّابت الجازم بالأمور الغيبيّة الواقعة، ولا يتزعزع أصحابها عن إيمانهم قيد أنملة، ولو سلّطت عليهم آلاف السّيوف، ولا يمكن للظّلمة أن تغشاهم لأنّ قلوبهم تنوّرت بالنّور الإلهي.

يا نفسُ ! فَهُم الذين نظروا إلى الأرض وإلى البحار وإلى نجوم السّماء وإلى المخلوقات الأخرى، فتعلّموا منها درسهم العظيم، وأمعنوا نظرهم فيها، وتفكّروا في الآثار الإلهيّة، **فأزيحت حجب الظّلمة دفعة واحدة عن قلوبهم**، وحصل لهم اليقين بالمبدأ الواحد الأحد الصّمد، اليقين الذي لا يتزعزع بفعل تيّارات الرّياح المخالفة. فأين الثّرى وأين الثّريا !!!

يا نفسُ ! فمرتبة علم اليقين الذي يتكلّم عنها السيّد حسين العالم قدّس سرّه لا علاقة لها بالفلسفة واستنباطاتها، والعلوم البشريّة واجتهاداتها، المنقولة منها والمعقولة، وإفرازات المخّ التي تستمدّ قوتها من حواس الإنسان الخمس. لأنّ علم اليقين ليس علمًا مكتسبًا، بل إنّه علم يحصل للسّالك خارج عالم المحسوسات، وهو نور إلهي يبزغ في قلب السّالك، من نوع العلم الذي ذكره الرّسول الأكرم (صلّى الله عليه وآله وسلّم): << العلم نورٌ يقذفه الله في قلب من يشاء >>.

يا نفسُ ! أمّا الفلسفة بشعبتيها الإلهيّة والماديّة فهي لا علاقة لها بأمور اليقين، ولا بمرتبة علم اليقين، وكيف ذلك في حين أنّ علم اليقين هو نور يقذفه الله في قلب من يشاء. أمّا الفلسفة فهي اختراع بشريّ صرف، يستلهم أصحابها العلم من عالم المحسوسات، أو يعتقد أصحابها بإصالة الأفكار، التي هي من إفرازات الخلايا المخيّة، وتفاعلاتها الكهربائيّة والمغناطيسيّة والكيماويّة.

يا نفسُ ! يليق بنا أن نذكر في هذا المقام تجربة النبي إبراهيم عليه السلام، وتحقيقاته واستدلالاته، وتفكّراته في النّجوم التي تزيّن السّماء الدّنيا، وفي بزوغ القمر والشّمس ثمّ أفولهما، كمثال حيّ على ما ذكره السيّد حسين العالم قدّس سرّه عن مرتبة علم اليقين، الذي يتأتّى بترتيب المقدّمات والاستدلالات، وبالتّفكّر في الآثار الإلهيّة.

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة الأنعام[1] : { وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا

[1] (سورة الأَنعام ٧٥ - ٧٩).

أُحِبُّ الْآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ }.

يا نفسُ ! من الواضح أنّ هذه الاستدلالات الملكوتيّة تيسّرت لإبراهيم عليه السلام، لأنّ الله أراد أن يريه ملكوت السّماوات والأرض، **وليكون من الموقنين**[1] . فحصل له نور اليقين، وحصل له التّوجّه الكلي إلى الله، ووجّه وجهه إلى الذي فطر السّماوات والأرض، الذي هو يبقى ويفنى كلّ شيء.

يا نفسُ ! والله أعلم حيث يجعل رسالته، والله أعلم بالنّفوس، فيختار لنفسه أزكاها وأخلصها وأكثرها استعدادًا للنّور والهداية. ثمّ ينظر في النّفوس الأخرى، فلا يرى تزكية ولا إخلاصًا ولا استعدادًا للنّور والهداية، ولا حتى نيّة من هذا النوع.

يقول الرّسول الأكرم محمّد (صلّى الله عليه وآله وسلّم): << لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه >>.

يا نفسُ ! فمثل هذه النّفوس تتوق إلى الدّنيا، وهي محشورة في أنانيتها وإثبات أعلميّتها، ولا تريد أن تتخلّص من العجْب والكبر، فيتركها الله إلى ما هاجرت إليه، فتنشغل بالفلسفات التي لا تؤدّي بها إلى اليقين، ولا إلى الإيمان القلبي الشّهودي، ولا إلى الوصول إلى ربّ العالمين، بل تزيد النّفوس ظلمة إلى ظلمة، وتنزلها من أحسن تقويم إلى أسفل سافلين أكثر فأكثر.

يا نفسُ ! فالمطلوب من الإنسان أن يخرج نيّته من دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها، وأن يضع النّية كلّها في حبّ الله وحبّ الوصول إليه، وحبّ الرّسول الأكرم (صلّى الله عليه وآله وسلّم) والأئمة الأطهار عليهم السّلام، والاقتداء بهم، وحذوهم حذو النعل بالنعل، وحبّ أحباب الله وأوليائه ومصاحبتهم. فلا يتردّد في ذلك، ولا يقدّم رجلًا ويؤخّر أخرى !!!

---

[1] { وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ } (سورة الأنعام ٧٥).

يا نفسُ ! أما ترين الحسين عليه السلام يناجي ربّه: إلهي أَمَرْتَ بِالرُّجُوعِ إِلَى الآثارِ فَارْجِعْني إِلَيْكَ بِكِسْوَةِ الأَنْوارِ، وَهِدايَةِ الاِسْتِبصارِ، حَتّى أَرْجعَ إِلَيْكَ مِنْها كَما دَخَلْتُ إِلَيْكَ مِنْها، مَصُونَ السِّرِّ عَنِ النَّظَرِ إِلَيْها، وَمَرْفُوعَ الْهِمَّةِ عَنِ الاِعْتِمادِ عَلَيْها ؟

يا نفسُ ! هو عليه السلام يهدف من البداية إلى الوصول إليه سبحانه فقط وفقط، مصون السّرّ عن النّظر إلى الآثار، ومرفوع الهمّة عن الاعتماد على الآثار. وهو يهدف إلى كسوة الأنوار وهداية الاستبصار، تمامًا كجدّه إبراهيم عليه السلام، لا الضّياع في الاستدلالات الذّهنيّة والبراهين الفكريّة. وحاشاه من ذلك ! فإنّها أضيع من سراج في شمس !!!

يا نفسُ ! فاجعلي هدفك لقاء الله وحده، واجعليه نصب عينيك، ولا تنسي ذلك أبدًا، ثمّ انظري ماذا يسّر الله لك، إنّ يسّر لك الاستدلالات والبراهين حتى تصلي إلى المؤثر عن طريق الأثر، فليكن ذلك، ولكن لا تنسي أن تلحفيه بالسّؤال بأن يعجّل لك الوصول إليه فقط وفقط، وأن تظهري الاستقامة في طلبك، والإرادة في التّعجيل للقائه، والإدبار عن دار الغرور، والإقبال على دار الخلود.

يقال أنّ الفيلسوف الشّهير ملا صدرا الشّيرازي الذي أمضى ثلاثين سنة في تأليف فلسفته الإلهيّة، حينما اقترب من سكرات الموت، تفوّه بهذه الكلمة المشهورة:-

يا ليتني فهمت حقّ الفهم هذه الآية الصّغيرة من القرآن الكريم[1] : { قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا }، وأمضيت في العمل بها عمري، بدل أن أضيّع ثلاثين سنة من عمري في متاهات الفلسفة !!!

إِذَا قَالَـــتْ حـــذَامِ فَصَـــدِّقُوهَا فَـإِنَّ القَـولَ مَـا قَالَـتْ حَـذَامِ

[1] (سورة الشمس ٩).

فاعتبري يا نفسُ ! فانظري ماذا تكون كلمتك الأخيرة عند اقتراب الموت، صدقًا وإنصافًا أمام الله، لا نفاقًا ورياءً أمام النّاس ؟ أتكون < فزتُ وربُّ الكعبة > ؟ أو < ارجعوني لعلّي أعمل صالحًا فيما تركت [1] > ؟

[1] { حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ } (سورة المؤمنون ٩٩ - ١٠٠).

<<مقتبسة من كتابي قدوة الفقهاء والعارفين>>.

حتى زرتم المقابر

يا نفسُ ! اسمعي ما يقوله إمامنا ومقتدانا أمير المؤمنين عليّ عليه السلام حينما تلا قوله تعالى[١] :

{ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ }

يَا لَهُ مَرَاماً مَا أَبْعَدَهُ، وَزَوْراً مَا أَغْفَلَهُ[٢] ، وَخَطَراً مَا أَفْظَعَهُ. لَقَدِ اسْتَخْلَوْا [٣] مِنْهُمْ أَيَّ مُدَّكِرٍ[٤] ، وَتَنَاوَشُوهُمْ [٥] مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ. أَ فَبِمَصَارِعِ آبَائِهِمْ يَفْخَرُونَ ؟ أَمْ بِعَدِيدِ الْهَلْكَى يَتَكَاثَرُونَ ؟ يَرْتَجِعُونَ مِنْهُمْ أَجْسَاداً خَوَتْ، وَحَرَكَاتٍ سَكَنَتْ.

وَلَأَنْ يَكُونُوا عِبَراً أَحَقُّ مِنْ أَنْ يَكُونُوا مُفْتَخَراً، وَلَأَنْ يَهْبِطُوا بِهِمْ جَنَابَ ذِلَّةٍ [٦] أَجْحَى مِنْ أَنْ يَقُومُوا بِهِمْ مَقَامَ عِزَّةٍ.

لَقَدْ نَظَرُوا إِلَيْهِمْ بِأَبْصَارِ الْعَشْوَةِ[٧] ، وَضَرَبُوا مِنْهُمْ فِي غَمْرَةِ جَهَالَةٍ[٨] ، وَلَوِ اسْتَنْطَقُوا عَنْهُمْ عَرَصَاتِ تِلْكَ الدِّيَارِ الْخَاوِيَةِ، وَالرُّبُوعِ الْخَالِيَةِ، لَقَالَتْ: ذَهَبُوا فِي الْأَرْضِ ضُلَّالًا[٩] ، وَذَهَبْتُمْ فِي أَعْقَابِهِمْ جُهَّالًا، تَطَئُونَ فِي هَامِهِمْ[١٠] ،

---

[١] (سورة التكاثر ١ - ٢).

[٢] زائرون للقبور وهم غافلون.

[٣] رأوا مكانهم خاليًا.

[٤] عبرة. يعني صاروا لهم عبرة، إذ رأوا مكانهم خالياً.

[٥] تفاخروا بهم.

[٦] ولأن يتواضعوا بهم أجحى لهم.

[٧] بأبصار الرمد.

[٨] ذهبوا في بحر الجهل.

[٩] ضاعوا.

[١٠] تطؤون على رؤوسهم.

وَتَسْتَنْبِتُونَ فِي أَجْسَادِهِمْ[١] ، وَتَرْتَعُونَ فِيمَا لَفَظُوا[٢] ، وَتَسْكُنُونَ فِيمَا خَرَّبُوا، وَإِنَّمَا الْأَيَّامُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ بَوَاكٍ، وَنَوَائِحُ عَلَيْكُمْ.

أُولَئِكُمْ سَلَفُ غَايَتِكُمْ[٣] ، وَفُرَّاطُ مَنَاهِلِكُمْ[٤] ، الَّذِينَ كَانَتْ لَهُمْ مَقَاوِمُ الْعِزِّ[٥]، وَحَلَبَاتُ الْفَخْرِ، مُلُوكاً وَسُوَقاً[٦] ، سَلَكُوا فِي بُطُونِ الْبَرْزَخِ سَبِيلًا، سُلِّطَتِ الْأَرْضُ عَلَيْهِمْ فِيهِ [٧] ، فَأَكَلَتْ مِنْ لُحُومِهِمْ، وَشَرِبَتْ مِنْ دِمَائِهِمْ، فَأَصْبَحُوا فِي فَجَوَاتِ قُبُورِهِمْ جَمَاداً لَا يَنْمُونَ، وَضِمَاراً لَا يُوجَدُونَ[٨] ، لَا يُفْزِعُهُمْ وُرُودُ الْأَهْوَالِ، وَلَا يَحْزُنُهُمْ تَنَكُّرُ الْأَحْوَالِ، وَلَا يَحْفِلُونَ بِالرَّوَاجِفِ[٩] ، وَلَا يَأْذَنُونَ لِلْقَوَاصِفِ[١٠] .

---

[١] وتقفون على أجسادهم.

[٢] تركوا.

[٣] سبقوكم إلى الموت الذي هو غايتكم.

[٤] سبّاق المناهل.

[٥] كانت لهم مقامات العزّ.

[٦] ملوكًا ورعيّةً.

[٧] بقوا في البرزخ، والأرض مسلّطة عليهم، بما حملوا من تعلّقاتهم بالأرض، وحبّهم وشغفهم بالأرض، وأمنياتهم التي لصقت بالأرض، وذكرياتهم بملاهيهم وملذّاتهم على الأرض، وحبّهم لأموالهم وثرواتهم التي جمعوها على ظهر الأرض وكثرة شحّهم عليها، وتمتّعهم بالجاه والمقام على أحجار الأرض، وكثرة رجسهم ودنسهم على الأرض، وحبّ رفاق السّوء على الأرض، وكثرة عماراتهم وعقاراتهم على الأرض، وحلاوة زبارج الأرض وزخرفها وزينتها، وحبّ البنين والمال والجاه، وحبّ الشّهوات والغرائز والنّساء، وحبّ القصور والحرير والسّندس والإستبرق، وحبّ التّبر والذّهب والفضة والزّمرّد والزّبرجد والجواهر واللآلئ، ومتراكمات من الذّنوب والمعاصي كبائرها وصغائرها.

[٨] وغيّابًا لا يرجعون.

[٩] ولا يبالون بالزّلازل.

[١٠] ولا يسمعون الرّعد الذي يجلجل بصوته المخيف.

غُيَّباً لَا يُنْتَظَرُونَ، وَشُهُوداً لَا يَحْضُرُونَ، وَإِنَّمَا كَانُوا جَمِيعاً فَتَشَتَّتُوا، وَآلَافاً فَافْتَرَقُوا، وَمَا عَنْ طُولِ عَهْدِهِمْ، وَلَا بُعْدِ مَحَلِّهِمْ، عَمِيَتْ أَخْبَارُهُمْ، وَصَمَّتْ دِيَارُهُمْ[١]، وَلَكِنَّهُمْ سُقُوا كَأْساً بَدَّلَتْهُمْ بِالنُّطْقِ خَرَساً، وَبِالسَّمْعِ صَمَماً، وَبِالْحَرَكَاتِ سُكُوناً، فَكَأَنَّهُمْ فِي ارْتِجَالِ الصِّفَةِ [٢] صَرْعَى سُبَاتٍ.

جِيرَانٌ لَا يَتَأَنَّسُونَ[٣] ، وَأَحِبَّاءُ لَا يَتَزَاوَرُونَ، بَلِيَتْ بَيْنَهُمْ عُرَا التَّعَارُفِ، وَانْقَطَعَتْ مِنْهُمْ أَسْبَابُ الْإِخَاءِ، فَكُلُّهُمْ وَحِيدٌ وَهُمْ جَمِيعٌ، وَبِجَانِبِ الْهَجْرِ[٤] وَهُمْ أَخِلَّاءُ، لَا يَتَعَارَفُونَ لِلَيْلٍ صَبَاحاً، وَلَا لِنَهَارٍ مَسَاءً.

أَيُّ الْجَدِيدَيْنِ[٥] ظَعَنُوا فِيهِ[٦] كَانَ عَلَيْهِمْ سَرْمَداً، شَاهَدُوا مِنْ أَخْطَارِ دَارِهِمْ أَفْظَعَ مِمَّا خَافُوا، وَرَأَوْا مِنْ آيَاتِهَا أَعْظَمَ مِمَّا قَدَّرُوا، فَكِلْتَا الْغَايَتَيْنِ[٧] مُدَّتْ لَهُمْ إِلَى مَبَاءَةٍ[٨] ، فَاتَتْ مَبَالِغَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ[٩] .

فَلَوْ كَانُوا يَنْطِقُونَ بِهَا لَعَيُّوا بِصِفَةِ مَا شَاهَدُوا وَمَا عَايَنُوا، وَلَئِنْ عَمِيَتْ آثَارُهُمْ وَانْقَطَعَتْ أَخْبَارُهُمْ، لَقَدْ رَجَعَتْ فِيهِمْ أَبْصَارُ الْعِبَرِ، وَسَمِعَتْ عَنْهُمْ آذَانُ

---

(١) أخبارهم خفيت عن العيون، وضجيج ديارهم صمتت عن الآذان.

(٢) إذا ارتجلنا في وصفهم.

(٣) جيران ولكن لا يستأنسون ببعضهم بعضاً.

(٤) بعيدون عن بعضهم البعض.

(٥) الليل والنهار.

(٦) دفنوا فيه.

(٧) فكلتا النجدين: إمّا شقيّ وإمّا سعيد.

(٨) مدّت الآجال لهم حتى يصلوا إلى عذاب أليم أو نعيم مقيم، حسب ما اختاروا من طريقهم في الحياة الدّنيا.

(٩) ووصلوا إلى نهايات الخوف والرّجاء.

الْعُقُولِ، وَتَكَلَّمُوا مِنْ غَيْرِ جِهَاتِ النُّطْقِ، فَقَالُوا: كَلَحَتِ[1] الْوُجُوهُ النَّوَاضِرُ، وَخَوَتِ[2] الْأَجْسَامُ النَّوَاعِمُ، وَلَبِسْنَا أَهْدَامَ الْبِلَى [3] ، وَتَكَاءَدَنَا ضِيقُ الْمَضْجَعِ[4] ، وَتَوَارَثْنَا الْوَحْشَةَ، وَتَهَكَّمَتْ عَلَيْنَا الرُّبُوعُ الصُّمُوتُ، فَانْمَحَتْ مَحَاسِنُ أَجْسَادِنَا، وَتَنَكَّرَتْ[5] مَعَارِفُ صُوَرِنَا، وَطَالَتْ فِي مَسَاكِنِ الْوَحْشَةِ إِقَامَتُنَا، وَلَمْ نَجِدْ مِنْ كَرْبٍ فَرَجاً، وَلَا مِنْ ضِيقٍ مُتَّسَعاً.

فَلَوْ مَثَّلْتَهُمْ بِعَقْلِكَ، أَوْ كُشِفَ عَنْهُمْ مَحْجُوبُ الْغِطَاءِ لَكَ، وَقَدِ ارْتَسَخَتْ[6] أَسْمَاعُهُمْ بِالْهَوَامِّ فَاسْتَكَّتْ[7] ، وَاكْتَحَلَتْ أَبْصَارُهُمْ بِالتُّرَابِ فَخَسَفَتْ[8] ، وَتَقَطَّعَتِ الْأَلْسِنَةُ فِي أَفْوَاهِهِمْ بَعْدَ ذَلَاقَتِهَا، وَهَمَدَتِ الْقُلُوبُ فِي صُدُورِهِمْ بَعْدَ يَقَظَتِهَا، وَعَاثَ فِي كُلِّ جَارِحَةٍ مِنْهُمْ جَدِيدُ بِلًى سَمَّجَهَا [9] ، وَسَهَّلَ طُرُقَ الْآفَةِ إِلَيْهَا، مُسْتَسْلِمَاتٍ، فَلَا أَيْدٍ تَدْفَعُ، وَلَا قُلُوبٌ تَجْزَعُ، لَرَأَيْتَ أَشْجَانَ قُلُوبٍ، وَأَقْذَاءَ عُيُونٍ، لَهُمْ فِي كُلِّ فَظَاعَةٍ صِفَةُ حَالٍ لَا تَنْتَقِلُ، وَغَمْرَةٌ[10] لَا تَنْجَلِي.

---

(١) قبحت.

(٢) وتفتّتت وتبعثرت.

(٣) ألبسة بالية.

(٤) وضيقت علينا اللحود الضيّقة.

(٥) قبحت.

(٦) أكلت.

(٧) أصابها الصمم.

(٨) كحلوا عيونهم بالتراب حتى خسفت إلى الأرض.

(٩) قبّحها.

(١٠) وبلاء.

فَكَمْ أَكَلَتِ الْأَرْضُ مِنْ عَزِيزِ جَسَدٍ، وَأَنِيقِ لَوْنٍ، كَانَ فِي الدُّنْيَا غَذِيَّ تَرَفٍ، وَرَبِيبَ شَرَفٍ، يَتَعَلَّلُ بِالسُّرُورِ فِي سَاعَةِ حُزْنِهِ، وَيَفْزَعُ إِلَى السَّلْوَةِ إِنْ مُصِيبَةٌ نَزَلَتْ بِهِ، ضَنّاً بِغَضَارَةِ عَيْشِهِ، وَشَحَاحَةً بِلَهْوِهِ وَلَعِبِهِ.

فَبَيْنَا هُوَ يَضْحَكُ إِلَى الدُّنْيَا وَتَضْحَكُ إِلَيْهِ، فِي ظِلِّ عَيْشٍ غَفُولٍ، إِذْ وَطِئَ الدَّهْرُ بِهِ حَسَكَهُ [1] ، وَنَقَضَتِ[2] الْأَيَّامُ قُوَاهُ، وَنَظَرَتْ إِلَيْهِ الْحُتُوفُ مِنْ كَثَبٍ[3] ، فَخَالَطَهُ بَثٌّ[4] لَا يَعْرِفُهُ، وَنَجِيُّ هَمٍّ[5] مَا كَانَ يَجِدُهُ، وَتَوَلَّدَتْ فِيهِ فَتَرَاتُ[6] عِلَلٍ، آنَسَ مَا كَانَ بِصِحَّتِهِ[7] .

فَفَزِعَ[8] إِلَى مَا كَانَ عَوَّدَهُ الْأَطِبَّاءُ، مِنْ تَسْكِينِ الْحَارِّ بِالْقَارِّ[9] ، وَتَحْرِيكِ الْبَارِدِ بِالْحَارِّ، فَلَمْ يُطْفِئْ بِبَارِدٍ إِلَّا ثَوَّرَ حَرَارَةً[10] ، وَلَا حَرَّكَ بِحَارٍّ إِلَّا هَيَّجَ بُرُودَةً، وَلَا اعْتَدَلَ بِمُمَازِجٍ لِتِلْكَ الطَّبَائِعِ[11] إِلَّا أَمَدَّ مِنْهَا كُلَّ ذَاتِ دَاءٍ[12] ،

---

(1) وطئ على أشواك.

(2) هدمت.

(3) نظر إليه الموت من قرب.

(4) همّ وغمّ.

(5) هو والهمّ الخفيّ يتسارّان.

(6) ضعف ووهن.

(7) في حين كان واثقًا بسلامته.

(8) لجأ بفزع.

(9) البارد.

(10) زاده حرارة.

(11) ما يناسب مزاجه.

(12) سبّب له شدّة المرض.

حَتَّى فَتَرَ مُعَلِّلُهُ[١] ، وَذَهَلَ مُمَرِّضُهُ، وَتَعَايَا أَهْلُهُ بِصِفَةِ دَائِهِ[٢] ، وَخَرِسُوا عَنْ جَوَابِ السَّائِلِينَ عَنْهُ، وَتَنَازَعُوا دُونَهُ شَجِيَّ خَبَرٍ[٣] يَكْتُمُونَهُ، فَقَائِلٌ يَقُولُ هُوَ لِمَا بِهِ، وَمُمَنٍّ لَهُمْ إِيَابَ عَافِيَتِهِ[٤] ، وَمُصَبِّرٌ لَهُمْ عَلَى فَقْدِهِ، يُذَكِّرُهُمْ أُسَى الْمَاضِينَ مِنْ قَبْلِهِ.

فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ عَلَى جَنَاحٍ مِنْ فِرَاقِ الدُّنْيَا، وَتَرْكِ الْأَحِبَّةِ، إِذْ عَرَضَ لَهُ عَارِضٌ مِنْ غُصَصِهِ، فَتَحَيَّرَتْ نَوَافِذُ فِطْنَتِهِ[٥] ، وَيَبِسَتْ رُطُوبَةُ لِسَانِهِ. فَكَمْ مِنْ مُهِمٍّ مِنْ جَوَابِهِ عَرَفَهُ فَعَيَّ عَنْ رَدِّهِ، وَدُعَاءٍ مُؤْلِمٍ بِقَلْبِهِ سَمِعَهُ فَتَصَامَّ عَنْهُ، مِنْ كَبِيرٍ كَانَ يُعَظِّمُهُ، أَوْ صَغِيرٍ كَانَ يَرْحَمُهُ، وَإِنَّ لِلْمَوْتِ لَغَمَرَاتٍ[٦] ، هِيَ أَفْظَعُ مِنْ أَنْ تُسْتَغْرَقَ بِصِفَةٍ[٧] ، أَوْ تَعْتَدِلَ عَلَى عُقُولِ أَهْلِ الدُّنْيَا [٨] .

---

(١) طبيبه.

(٢) عيّوا من فهم سبب آوجاعه وآلامه.

(٣) خبر محزن.

(٤) يمنّيهم بعودة عافيته.

(٥) فطنته النّافذة.

(٦) مصاعب.

(٧) أفظع من أن توصف.

(٨) وتعجز العقول عن إدراكها.

الفيوضات الإلهيّة

يا نفسُ ! إنّ الفيض الإلهي والتّجلّيات الرّبانيّة حاضرة لكلّ فرد من أفراد البشر، ولكن شهودها يستلزم تصفية الذّات، والتّوجّه صوب الآخرة، والفراغ من غير الله، وحينها تصل إليك الكمالات الوجوديّة، لأنّه جلّ اسمه ليس ممسكًا طرفة عين.

يا نفسُ ! إذا تدبّرت مليًّا فيما يقوله والدي السيّد حسين العالم الموسوي قدّس سرّه، من أن الفيض الإلهي والتّجلّيات الرّبّانيّة حاضرة لكلّ فرد من أفراد البشر، تعرفين على التّحقيق، بأنّ هذه الفتوحات ميسّرة لكلّ أفراد البشر، لا الأنبياء وحدهم، ولا محمّد (صلّى الله عليه وآله وسلّم) وأهل بيته الطّاهرين (عليهم السلام) وحدهم، بل إنّها حاضرة لكلّ البشر.

يا نفسُ ! فالخطوة الأولى هي أن تصفّي ثقافتك أوّلًا من التّرهات، فالثقافة المعوجّة هي المانعة الأولى، التي تدرأ عنك الفيض الإلهي والتّجلّيات الرّبانيّة.

يا نفسُ ! أو ما قرأت القرآن الكريم، حيث يقول الله تعالى في سورة الشورى[1] : { وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ }.

يا نفسُ ! إنّ الله سبحانه وتعالى يقول بأنّ الله يكلّم البشر إمّا كذا أو كذا. فهل أنت مستوعبة ما يقوله الله جلّت قدرته ؟ إنّ كلامه فصيح بليغ واضح بيّن لا شبهة فيه، فلماذا يا نفسُ ! لا تستقيمين ؟ ولماذا يا نفسُ ! لا تتعرّضين لهذا النّسيم الرّحماني ؟

يا نفسُ ! والخطوة الثانية هي أن لا بدّ من تصفية الذّات، كما يقول السيّد حسين العالم قدّس سرّه. لا بدّ من تزكية النّفس عما سوى الله، والتّجافي عن دار الغرور، والجهاد الأكبر الذي يفضي إلى الوجدان النّوراني، وإلى روح من الله نفخه فيك، حتى يبزغ ويسطع هذا الرّوح القدسيّ

---

[1] (سورة الشورى ٥١).

في كلّ وجودك، ويحييك الله بعد أن تكوني ميتة ومقبورة في بدنك المادي، كما يقول الله تعالى في سورة الأنعام[1] : { أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ }.

فانهض إلى التّطهير والتّزكيـة التي تفضـــي لوجــدان ونــور ســناها
تفضي لروح التّفخ غير ملوّث فبزوغــه خــتم الــرّدى ومناهــا

يا نفسُ ! الخطوة الثالثة هي أن تجعلي الآخرة أكبر همّك ودومًا نصب عينيك، وأن تتجافي عن دار الغرور، وأن تنيبي إلى دار الخلود. فإذا تيقنت بأنّ النشأة الدّنيا ممرّك إلى دار الخلود، وأن الدّنيا مزرعة الآخرة، وأنّ الآخرة هي دار القرار، وهي دار الحصاد، وأنّ وطنك هناك لا هنا، فحينذاك تكونين قد غيّرت اتجاهك من الدّنيا صوب الآخرة.

يا نفسُ ! يقول الرسول الأكرم محمّد (صلّى الله عليه وآله وسلّم): <<إنَّ العَبْدَ إذا كانَ هَمُّهُ الآخِرَةَ؛ كَفَّ اللَّهُ تَعَالى عَلَيْهِ ضَيْعَتَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ في قَلْبِهِ، فَلا يُصْبِحُ إلاّ غَنِيًّا. وَإذا كانَ هَمُّهُ الدُّنْيا؛ أفْشَى اللَّهُ تَعَالى ضَيْعَتَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، فَلا يُمْسِي إلاّ فَقِيراً، وَلا يُصْبِحُ إلاّ فَقِيْراً>>. ويقول (صلوات الله عليه وآله): << خيركم أَزْهَدُكُمْ فِي الدُّنْيَا وَأَرْغَبُكُمْ فِي الْآخِرَةِ >>.

يا نفسُ ! وهذا لا يعني انزواءك في الجبال والكهوف، بل أن تكوني وسط معمعة الحياة الدّنيا، وأن تكوني أنشط إنسان على وجه البسيطة، ولكن يجب أن يكون همّك كبيرًا، بكبر عالمك الأكبر الذي انطوى فيك، وأن يكون اهتمامك بالعلل الغائيّة من خلقك، لا أن تكون الدّنيا مبلغ علمك وأكبر همّك، ولا مثل البهيمة همّها علفها !!!

يا نفسُ ! والخطوة الرّابعة هي أن تتفرّغي من غير الله، وتتّجهي إلى الانقطاع إلى الله، والانشغال بذكره وحبّه وعشقه، كما يقول إمامنا عليّ عليه السلام: <<عَظُمَ الْخَالِقُ فِيأَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ>>، وكما يقول إمامنا الحسين عليه السلام: << ماذا وَجَدَ مَنْ فَقَدَكَ، وَمَا الَّذى فَقَدَ مَنْ وَجَدَكَ>>، ويقول عليه السلام في مكان آخر: <<خَسِرَتْ صَفْقَةُ عَبْد لَمْ تَجْعَلْ لَهُ مِنْ حُبِّكَ نَصيباً >>.

---

[1] (سورة الأَنعام ١٢٢).

يا نفسُ ! فالفراغ من غير الله هو الفراغ من (الأغيار) بعينه، كما يقول أبو عبد الله الحسين، روحي له الفداء: <<أَنْتَ الَّذِي أَزَلْتَ الأَغْيارَ عَنْ قُلُوبِ أَحِبَّائِكَ حَتَّى لَمْ يُحِبُّوا سِواكَ وَلَمْ يَلْجَأُوا إِلى غَيْرِكَ>>.

يا نفسُ ! إذا أنت تيقّنت – فكرًا وعقيدةً ولسانًا وقلبًا وبكلّ وجودك - بأنّ لا إصالة البتّة للموجودات، وإنّما الإصالة للوجود وحده، وأنّ الموجودات هي مجرّد تعيّنات، وأنّها ليست شيئًا مذكورًا، هنالك تتفرّغين كلّيًّا من غير الله، لأنّك حينذاك لا ترين إلّا الله.

يا نفسُ ! وهل تعرفين ماذا يعنيه السيّد حسين العالم قدّس سرّه، بأنّ الكمالات الوجوديّة تصل إليك، لأنّه جلّ اسمه ليس ممسكًا طرفة عين ؟ إنّه يعني بأنّ فيضه تعالى حاضر لكلّ إنسان، ولكلّ أفراد البشر، وهو تعالى لا يمسك فيوضاته وتجلّياته عن المستعدّين والمتلقّين طرفة عين. ففيوضاته وتجلّياته متدفّقة منهمرة تملأ الخافقين، ولكن ما أقلّ المتلقّين !!!

يا نفسُ ! فلننظر مليًّا في الكون كي نأتيك بالأمثال، حتى تستوعبي الأمر جيّدًا. فلنضرب مثال الأمواج الكهرومغناطيسيّة التي تملأ الكون، وهي ليست ممسكة طرفة عين، ولكن لا يتلقّاها جهاز التلقّي إلّا إذا كان صالحًا. أمّا إذا كانت الأجهزة فاسدة، فتحرمين من تلقّي تلك الأمواج، رغم أنّ الأمواج تملأ الأثير.

يا نفسُ ! واعلمي أنّ كثيرًا جدًّا من الآيات وردت في القرآن الكريم تحثّ على العمل الصّالح، الذي هو العمل الذي يُصلح جهازك الذي فسد في عالم الكون والفساد. فصلاح جهازك يجعلك مؤهّلًا لتلقي الأنوار الرّبانيّة والفيوضات الإلهيّة التي تملأ الخافقين.

يا نفسُ ! إنّ الله أقرب إليك من حبل الوريد، ولكنّك بعيدة عنه بسبب فساد أجهزتك، وهذا الفساد، مع الأسف الشّديد، يكون مانعًا من تلقّي الأنوار والفيوضات.

يا نفسُ ! أو ما سمعت الله تعالى يقول في سورة الأعراف[1] : { وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ } ؟

يا نفسُ ! أين أعينك التي لا تبصر.. ؟ وأين آذانك التي لا تسمع.. ؟ وأين قلوبك التي لا تفقه..؟ هذه هي الأجهزة المتلقية في وجودك، طمستها بأياديك الجاحدة وأفكارك المعوجّة، ثمّ أنت لا تقومين بالعمل الصّالح لإصلاحها. وبدل ذلك تملئين حياتك بالظّنون والأوهام، وسوء الظّن بهذا أو ذاك، والشّك في عباد الله الصّالحين، كأنك خير محض والآخرون شرّ محض !!! يقول الإمام عليّ عليه السلام: << طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب غيره >>.

إذا ساءَ فِعْلُ المرْءِ ساءَتْ ظُنُونُـهُ وَصَـدَقَ مَـا يَعتَـادُهُ مـن تَـوَهُّمِ

يا نفسُ ! ويؤكّد السيّد حسين العالم قدّس سرّه على دور العلم والمعرفة للإنفتاح على روائع النّفس والكون، ويقول بأنّ تحصيل العلم والمعرفة ينفخ فيك يقظة الرّوح، ويهبك ثروة الحياة الرّوحانيّة.

يا نفسُ ! ويقول قدّس سرّه، في مكان آخر، بأنّ العلم والمعرفة تزيد الإيمان قوّة، وتوصل الإنسان إلى المراتب العالية من السّعادة، بل إنّها توصل الإنسان إلى مراتب من الإيمان، يكون العمل فيها وفي وقتها يعادل عمل الثقلين.

يا نفسُ ! ولقد أعطى السيّد حسين العالم قدّس سرّه لذلك مثالًا من إيمان الإمام عليّ عليه السلام يوم الخندق، حتى قال الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلّم) عنه: <<برز الإيمان كلّه إلى الشّرك كلّه>>. وقال (صلّى الله عليه وآله وسلّم) أيضًا: <<لضربة عليّ يوم الخندق أفضل من عبادة الثقلين>>.

---

[1] (سورة الأَعراف ١٧٩).

يا نفسُ ! ويعزو السيّد حسين العالم قدّس سرّه هذه البطولات التّاريخيّة للإمام عليّ عليه السلام إلى إيمانه القويّ، وإلى سعة علمه ومعرفته، حتى قال سلام الله عليه: <<لَوْ كُشِفَ الْغِطَاءُ مَا ازْدَدْتُ يَقِينًا>>. فعليه صلوات الله خالدة الدّوام، عدد قطر الرّهام[1] ، وزنة الجبال والآكام، ما أورق السّلام، واختلف الضّياء والظّلام[2] .

(1) المطر الخفيف الدائم.

(2) مقتبس من كتابي قدوة الفقهاء والعارفين.

أنوار اليقين

يا نفسُ ! إنّ مكتب السّير والسّلوك ليس مدرسة نظاميّة، حيث تبدأ بدراسة السّير والسّلوك حين الدّخول إليها. فهذه المدرسة لا يدخلها إلّا من وجد في نفسه ميلًا عظيمًا يجذبه إلى الله، على الرّغم من ارتياحه الظّاهري في الحياة، وقفصه الذّهبي في الدّنيا، وتمكّنه من تأسيس حياة طيّبة لنفسه، من الدّراسة المتقدّمة، والعمل العالي المدرّ للدّخل الطيّب، ومنزل يسكنه، وسيّارة تسهّل عليه الحركة، وزوجة وأولاد وما إلى ذلك.

يا نفسُ ! بعبارة أخرى إنّ السّير والسّلوك عمليّة يسّرها الله للكثيرين قبل أن يصلوا إلى المعلّم الرّباني. فعندما تصلين يا نفسُ ! إلى الأستاذ، تكونين قد قطعت شوطًا في السّير إلى الله، وكنت قد تجاوزت الكثير من مراحل القبض والبسط والشّكّ واليقين.

يا نفسُ ! إنّ احتياجنا إلى المعلّم يكون لتكميل المشوار، بحيث يعطينا المعلّم أو الشّيخ جهة واضحة من معالم الطريق في سيرنا إلى الله، وزخمًا لاندفاعنا نحو الله، بحيث نتّجه إلى الله في قفزات وخطوات كبيرة، تسهّل علينا الوصول إلى الله أسرع بكثير، وأسهل بكثير، مما لو اندفعنا وحدنا في هذا الطريق.

يا نفسُ ! إنّ ما يحدث في باطن السّالك في بداية الطريق، هو ما أسمّيه بأنوار اليقين، تشرق في قلب العبد، فيشتاق إلى طريقة السّير والسّلوك، والتّحرّر من قفصه الذهبي في الدّنيا. ويجذبه حبّ الله إلى تغيير نمطه في التّفكير، بحيث تؤثّر كثيرًا على نمط الحياة التي يعيشها. << أَنْتَ الَّذِي أَشْرَقْتَ الأَنْوارَ فِي قُلُوبِ أَوْلِيائِكَ حَتَّى عَرَفُوكَ وَوَحَّدُوكَ [1] >>.

[1] (من دعاء عرفة للإمام الحسين عليه السلام).

يا نفسُ ! كيف يحدث ذلك ؟ وما هي التّطوّرات التي تطرأ في قلب العبد ؟ أحاول أن أعطيك مثالًا من كتابي (ألف باء العرفان) أو (رسالة يقظان بن حيّ) [1] ، وكيف أشرقت أنوار اليقين في قلب يقظان بن حيّ:-

وأحيانًا كان يسمع من أعماقه همسات لطيفة تدعوه إلى الحرية، وإلى الخروج من قفصه الذّهبي، ولكنّه لا يعيرها أذنًا صاغية. وأحيانًا يرى بصيصًا من النور ينفذ إليه من كوّة القلعة، ولكنّه يدير ظهره، ويعزف عن النّظر إليه.

ورويدًا رويدًا تحوّلت الهمسات إلى نداء وهاتف، يدعوه إلى العروج إلى السّماء، والانقلاع عن الأرض، كأنه نداء الوجود يدعو ابنه الضالّ المسكين إلى الاتّجاه إليه، والتّوجّه إلى معارجه، وإلى الرّجوع إلى أصله، والتّوبة والإنابة إلى خالقه وفاطره، والاشتياق إلى أنواره، والتّوق إلى نجواه، والعروج إلى سماواته، والالتحاق بموكب النّور، والاتّصال بمولاه.

وشيئًا فشيئًا بدأ يقظان يزيح عن عينيه أغشية العمى، ويستيقظ من سباته العميق، ويستعيد وعي الأزليّة والسّرمديّة، ويتذكّر الميثاق الذي أعطاه لـ لله عزّ وجلّ في عالم الذرّ، عندما سئل: <ألست بربكم> فأجاب: <بلى>. وتذكّر عبوديّته لربّ العالمين، وتعجّب كيف انجرف وراء السّراب، وحيلة المضلّين، هاربًا من جنّة النّعيم إلى جهنّم الأوهام، التي تستعر بنار الجهالة، ومن ربّ شفيق رقيق، إلى وسوسة الشّيطان، ومصائد إبليس.

فاعترته حالة غير مألوفة: يهرب من النّاس، ويتوارى عن الأنظار، ويقضي ساعات طويلة في خلواته وصلواته، يبكي بكاء الحزين، ويئنّ أنين الكليم، يذرف دموعًا على أيام جهالته وطيشه وغفلته وغروره وتكبّره وعجرفته، لا يتنعّم بالحياة الطبيعيّة، ولا تبهجه عادات القوم، وأغلال الرّسوم والتّقاليد، ولا يهبّ مع الجماعة لإشعال نار شهواته.

[1] صفحات ١٨ إلى ٢٥ من كتابي (ألف باء العرفان) أو (رسالة يقظان بن حيّ).

وكان يتكلّم كلامًا غير مألوف، لا يفهمه أصحاب الغفلة، وكانوا يسخرون منه، لأنّهم كانوا يجهلون كلامه. ويعتقد بعضهم أنّه مسحور ويقولون: طرأت عليه أحوال عجيبة، ونظراته زائغة، وأقواله مبهمة، ينزوي عن الناس، ويحبّ الخلوات، يبقى صامتًا مفكّرًا لفترات طويلة، لا يعير اهتمامًا لما حوله، كأنّه في عالم بعيد.

ويعتقد البعض الآخر أنّه قد مسّه الجنون، فهو يتكلّم عن نداء يسمعه، بل أحيانًا عن مشاهد يراها، مما لا يراها الآخرون، ويتمتم بكلمات غامضة، ويسهر الليالي في خلواته، ويعزف عن ملذّاتهم وشهواتهم، وحتى عن الرّغبات والمطامع، التي هي حطب الدّنيا ومصدر حركتها.

ولطالما غذّى حياته البهيميّة بحطب آماله اليابسة، ولطالما تبع تمنّياته الزّائفة، وعاش معهم في سجن الطّبع وإسارته، يتحرّك فيه في حلقات مفرغة، يكدح ويسعى كحمار الطّاحون، لا ينفذ من جلدة الطّبع المخيف، إلى عالم آخر متحرّر من الجهل والظّنون، ومن رعاية وتربية الماضي المجهول، **إلى عالم تشرق عليه الأنوار، وتسود فيه المعرفة واليقين.**

ويتعجّب أصحاب الغفلة ويظنّون أنّه مريض أو مسحور، أو أنّه قد خولط في عقله - كما يقول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في خطبة هَمَّام في نهج البلاغة: << يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ النَّاظِرُ فَيَحْسَبُهُمْ مَرْضَى وَمَا بِالْقَوْمِ مِنْ مَرَضٍ وَيَقُولُ لَقَدْ خُولِطُوا وَلَقَدْ خَالَطَهُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ لَا يَرْضَوْنَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الْقَلِيلَ وَلَا يَسْتَكْثِرُونَ الْكَثِيرَ فَهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ مُتَّهِمُونَ وَمِنْ أَعْمَالِهِمْ مُشْفِقُونَ >>.

ويقال: إنّه حاول مرارًا الفرار من معبد الشّيطان - حيث الشّهوات والرّغبات - ولكن القلعة السّوداء تحرسها غلب الرّجال، بيدهم مقامع من حديد، فمنعه الحراس من الفرار.

وفي الأيام التالية اجتمع حوله مدّعو النّزاهة والاستقامة، وحاولوا إبداء النّصيحة له بترك الأوهام، وبألّا يفسد على نفسه وعلى الآخرين راحة البال التي اعتادوها، تحت خيمة الملذّات والرّغبات والشّهوات.

إلّا أنّ يقظان موجود ملكوتي، انهال عليه ركام الأتربة، وغبار الفحم الأسود، وهو في طريقه إلى الأرض الملعونة، أثناء هبوطه من العوالم العلويّة. فهذا الرّكام الأسود من القمامة والأوساخ ، **في داخله درّة هي أكثر شفافية وأرقّ من جاذبية المغناطيس، وألطف وأحنى من رحم الأم، تحمل في ثناياها روح المعرفة والعرفان، حيّة نابضة وبيضاء ناصعة**، فمتى يا ترى تزال الأتربة، ويغسل الغبار الأسود، من فوق هذه الدّرّة البيضاء !

فهو لا يقتنع بكلام أهل الدّنيا، ومنهم من يتظاهرون بالدِّين، وازدانوا بثياب الصّلاح والسّداد، ولكن ديدنهم حبّ المال والنّساء والشّهوات. وحتى العوالم العلويّة التي تكلّم عنها الأنبياء والأولياء قد تصلّبت في أيديهم، وأضحت حديثًا عن النّساء والشّهوات والخمر والمسكرات، وتبلورت حديثًا دنيويًّا لا تشتمّ منه رائحة التّوحيد والتّجريد، والملأ الأعلى، والموجودات الملكوتيّة. فقد غطّت المادة أذهانهم، فهل إلى النّورانيّات والرّوحانيّات من سبيل ؟

فهل تنهار القصور الرّمليّة من فوق الأذهان، وتبدأ الصّلاة بحضور القلب، ويطّلع على الخلود والملأ الأعلى من نافذة القلب ؟ فمتى يخشع القلب ويبدأ الجمع في نورانيّته، ومتى يتبدّد الظّلام وتشرق الأنوار، ومتى يهدأ لغو اللسان، ويستقرّ القلب، وتشرق الأنوار في الجنان، وتسكن الأصوات، ويضمحلّ الهرج والمرج والتّمريج من القلب الذي هو منزل القدسيّات، وتنزل السّكينة على روحه الحسّاسة المعذّبة التّوّاقة إلى ربّها ؟

يهتدي يقظان بنجم الشّعرى في الليلة الظّلماء، ويتيقّن أنّه لا يمكن الوصول إلى دار السّكينة والسّلام من دون المعرفة. فيسلك سبيل العرفان، ويبدأ بإسقاط أردية الموت عن روحه، كما تُسقط الشّجرة أوراقها في الخريف، وينفض غبار الظّلم عن كلّ جوارحه، جارحة جارحة، ويكشف حجب الظّلمات عن ذهنيّاته وأفكاره، ويبحث عن جذور الذّنوب والمعاصي في أعماق أعماقه، ويصارع الشّياطين في ظلمات نفسه، ويبدأ بمعرفة نفسه ودقائقها وحيلها ومصائدها ومكرها

وخداعها، حتى لا يلوم غير نفسه عدالة وإنصافًا، وحتى يجد بأمّ عينه كيف تلعب الفئران والجرذان في ظلمات نفسه.

وكيف يتأتّى ذلك من دون التعرّض لدروس المعرفة والحكمة، والإصغاء إلى النّغمات اللطيفة من عالم العلويات، ومن دون التسليم للتّعليمات السّماويّة، وتطبيقها في نفسه درسًا درسًا ؟

إلّا أنّها أصعب لون من ألوان التّلمذة، لا يحفظ فيها التّلميذ دروسه ويحشي ذهنه، **بل يطبّقها في نفسه، ويسقط كلّ الإضافات على فطرته العلويّة، وذلك بتصفية ذهنيّاته من كلّ ما اكتسبه خلال عمره من محيطه وبيئته من علم ناقص**، ربّما كان ضربًا من ضروب الجهل المركّب.

يا نفسُ ! وطبعًا تسهل صعوبات هذه التّلمذة عندما تكونين باحثة عن ضالّتك ... وهل تصلين إلى السّعادة إلّا عندما تجدين ضالّتك، وهل ضالّة المؤمن غير الحكمة !

يا نفسُ ! وأحكم شيء يربطك بالعالم السّفلي هو التعلّقات القلبيّة بمتاع الدّنيا. وبالمعرفة يتيقّن الإنسان بأنّ المتاع لا يستحقّ كلّ هذه التّعلّقات القلبيّة، وكلّ هذه الرّغبات والشّهوات والغرائز.

يا نفسُ ! فما أحسن أن ينقلع الإنسان عن المتاع، وأن يوجّه كلّ قواه القلبيّة والغريزيّة لإنقاذ الدّرّة البيضاء من هيمنة القمامة والأوساخ التي تراكمت عليها.

يا نفسُ ! وربّ قائل يقول: سأضحى فقيرًا ومحتاجًا إن أنا تركت تعلّقاتي بمتاع الدّنيا، وهل الحاجة والفقر هي رسالة العرفان ؟ الجواب هو طبعًا "كلا"، فالزّهد الذي يوصي به هو "أن لا تأسى على ما فاتك وأن لا تفرح بما أتاك"، وهو السّموّ والتّحرّر عن تعلّقاتك القلبيّة بما فاتك أو أتاك من المتاع الدنيوي.

يا نفسُ ! فالعرفان لا يلغي قوّة العقل المادي أو عقل المعاش، فما أكثر الغنى والثّروة بين العرفاء، فغنى النبيّ سليمان عليه السلام ليس بسبب علاقته بالمال، وفقر النبي عيسى عليه السلام ليس بسبب

قصر عقله المادي. فكلاهما عارف زاهد في متاع الدّنيا، لسموّهما وتحرّرهما من العالم السفليّ، وحبّ المال والجاه والدّولة الأرضيّة: { تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ } [1] .

لقد اهتدى يقظان إلى النّور في آخر التّفق [2] ...

[1] (سورة القصص ٨٣).

[2] مقتبس من كتابي قدوة الفقهاء والعارفين

يا نفسُ ! يقول سيّد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة:

إلهي تَرَدُّدي فِي الآثارِ يُوجِبُ بُعْدَ المَزارِ، فَاجْمَعْني عَلَيْكَ بِخِدْمَة تُوصِلني إلَيْكَ، كَيْفَ يُسْتَدَلُّ عَلَيْكَ بِما هُوَ في وُجُودِهِ مُفتَقِرٌ إلَيْكَ، أيَكُونُ لِغَيْرِكَ مِنَ الظُّهُورِ ما لَيْسَ لَكَ حَتّى يَكُونَ هُوَ المُظْهِر لَكَ، مَتى غِبْتَ حَتّى تَحْتاجَ إلى دَليل يَدُلُّ عَلَيْكَ، وَمَتى بَعُدْتَ حَتّى تَكُونَ الآثارُ هِيَ الَّتي تُوصِلُ إلَيْكَ، عَمِيَتْ عَيْنٌ لا تَراكَ عَلَيْها رَقيباً، وَخَسِرَتْ صَفقَة عَبد لَمْ تَجْعَلْ لَهُ مِنْ حُبِّكَ نَصيباً. إلهي أمَرْتَ بِالرُّجُوعِ إلَى الآثارِ فَارْجِعْني إلَيْكَ بِكِسْوَةِ الأنْوارِ، وَهِدايَةِ الِاسْتِبصارِ، حَتّى أرْجعَ إلَيْكَ مِنْها كَما دَخَلْتُ إلَيْكَ مِنْها، مَصُونَ السِّرِّ عَنِ النَّظَرِ إلَيْها، وَمَرْفُوعَ الهِمَّةِ عَنِ الِاعْتِمادِ عَلَيْها.

يا نفسُ ! وفي مكان آخر يقول عليه السلام:

أَنْتَ الَّذِي أَشْرَقْتَ الأَنْوارَ فِي قُلُوبِ أَوْلِيائِكَ حَتَّى عَرَفُوكَ وَوَحَّدُوكَ، وَأَنْتَ الَّذِي أَزَلْتَ الأَغْيارَ عَنْ قُلُوبِ أَحِبَّائِكَ حَتَّى لَمْ يُحِبُّوا سِواكَ وَلَمْ يَلْجَأُوا إِلى غَيْرِكَ، أَنْتَ المُؤْنِسُ لَهُمْ حَيْثُ أَوْحَشَتْهُمُ العَوالِمُ، وَأَنْتَ الَّذِي هَدَيْتَهُمْ حَيْثُ اسْتَبانَتْ لَهُمُ المَعالِمُ، ماذا وَجَدَ مَنْ فَقَدَكَ، وَماالَّذِي فَقَدَ مَنْ وَجَدَكَ ؟! لَقَدْ خابَ مَنْ رَضِيَ دُونَكَ بَدَلاً، وَلَقَدْ خَسِرَ مَنْ بَغى عَنْكَ مُتَحَوَّلاً.

حقوق النشر محفوظة للمؤلف
www.taqimusawi.com